ألفة الادلبي



قصص شامية

الطبعة الثانية ١٩٩٢

الإهداء

إلى شريك حياتي الدكتور حمدي الادلبي

أهدي كتابي هذا

المقدمة

بقلم : عميد القصة العربية

الأستاذ محمود تيمور بك

ما كان أغنى هذه المجموعة القصصية عن أن أقدم لها بكلمات !

إنما تبسط المقدمة بين يدي الكتّاب ، لكي تجلو فيه خفية ، أو تؤيد منه فكرة ، أو تدرأ عنه شبهة ، فموقف التقديم إذن أشبه بموقف الدلال في متجر ، أو الدليل في متحف ، وربما كان أشبه بموقف الدفاع في مأزق الاتهام !... وهذه المجموعة القصصية بين يدي قرائها تتجلى لهم بكل ما فيها على غاية من اليسر والوضوح ، تثبت لنفسها ما هي أهل له ، وتنفي عن نفسها ما هي منه براء .

سوف يفرغ القراء من هذه المجموعة ، وقد اختلفوا أذواقاً وأهواء ، تتفاوت مراتب إعجابهم بهذه القصة أو تلك ، ولكنهم سيقفون جميعاً على أن كاتبة قصصية قد بزغ نجمها في أدبنا العربي الحديث ، وأن هذا النجم قد أخذ يبعث في عرض الأفق ضوءه الوادع اللمّاح .

وشأني كله في هذه المقدمة أني أول هؤلاء القراء ، طالعت كثيراً مما حوت هذه المجموعة ، فأعجبت ببعضها تارة ، وعَنَّت لي ملاحظة في بعضها تارة أخرى ، ومن مزاج الملاحظة والإعجاب أكتب هذه السطور ، تحية لذلك الوميض الجديد الذي أضاء في أدبنا القصصي الطارف .

خير ما في هذه المجموعة أنها طراز خاص ، وشخصية مستقلة ، فيها تصوير للحياة الشرقية ، وتعبير عن العقلية الشرقية ، فهي شرقية الجو ، شرقية الروح ، شرقية النزعات والسمات ، وإنك لتقرأ تلك الأقاصيص فتلم بما للشرق في حياته الاجتماعية من خصائص ومميزات يتوارثها الأخلاف عن الأسلاف .

وصاحبة هذه المجموعة أمينة الوحي ، صادقة الإلهام ، تستمد من روحها ومن عاطفتها ما طاب لها أن تستمد ، وإنك لتلمح في أقاصيصها مزيداً من الإفصاح عن نفسية المرأة ، وقد يكون في هذا الإفصاح جنوح إلى التمجيد والتنزيه ، ولكنه يبدو في غير صنعة ولا إغراق .

والسائد في هذه الأقاصيص تغليب الفضيلة في مواقف الأبطال ، وبخاصة النساء . فبيناهم على شفا الهاوية ، تتناوح بهم رياح النزوات ، إذ يتمالكون ويتماسكون . ولكن التمهيد للمواقف ، والبراعة في السبك ، ودقة المعالجة تريك هذه المصاير طبيعية لا تكلف فيها ولا تزوير . وبذلك يبدو الفن القصصي في إطار خلقي لا ينبو عنه المتزمتون .

وبناء هذه الأقاصيص يقوم على دعائم من استجابة الكاتبة للحياة من حولها ، فهي لا تضرب في مسابح الخيال ، فتسوي لنا صوراً من جانب السماء عليها أصباغ من قوس قزح ، لا تكاد تلمع حتى تخبو ... بل إنها تصطنع الخيال أداة طيعة تهبط بها إلى الحياة على ظهر الأرض ، فتتخذ من الأخيلة ما يتخذ الطاهي من التوابل والأفاويه ، مطيباً بها ألوان الطعام ، وهي تطيب بهذه الأخيلة ما تشهد من أحداث الناس ، وما تستجيب له نفسها من شؤون المجتمع ومرائيه .

والوصف في هذه الأقاصيص عنصر من عناصرها التي تزيدها حسناً ،

فإذا جاء ذكر المرقص وصفته أبرع وصف ، وإذا عرض الحديث للمتنزهات جلت لنا صورة طريفة من معابث الشباب بين الخمائل والرياحين .

ومهما تكن غلبة الأمر القائل بأن القصة يجب أن يكون لها موضوع وهدف ، وأن يستعلي فيها جانب الفكرة ، وأن تكون تجربة من الحياة لها أثر في التعريف بالحياة ، فلا ريب في أن القصة في أول الأمر وآخره أدب ، والأدب ألوان ، والحظ العظيم فيه لإمتاع النفس برقة الحديث ، ولطف المناجاة ، وعذوبة السمر ، فالقصة التي تكفل للقارئ هذا القدر من المتعة جديرة أن تعد في صميم الأدب ، إذ هي تؤدي وظيفة اجتماعية لمن ينشد في الفن روح السلوة والترفيه . وفي أكثر أقاصيص هذه المجموعة نماذج طيبة لهذا الضرب من الحكايات التي تدخل في باب الأسمار ، تهش لها النفوس ، وتلذ الأسماع .

والكاتبة في أقاصيصها تمضي في سرد المواقع وسياقة الأحداث ، لا يخلو سردها وسياقها من تصوير ، ولكنه تصوير قليل الحظ من عنصر الحوار ، وليس ذلك عن قصور منها في عقدة المحاورة بين الأبطال ، وإنما هو اتجاه ومنهج ، ولو أنها عنيت في تصويرها بعنصر الحوار لكانت لها فيه آيات ، فإن المحاورات القليلة في أقاصيصها تدل على فطنة ولباقة في تصريف الحديث .

ومن لوامع هذه الأقاصيص الافتنان في بدء الأقصوصة وختامها ، فالكاتبة حريصة على أن تحسن استقبال قارئها حرصها على إحسان توديعه فهي تطالعه بما يثير اهتمامه ويبعث شوقه ، وهي إذا أفضت إلى هذه النهاية خبأت له ما يكفل بعث الشوق وإثارة الاهتمام .

ومثل هذا الافتتان يتوضح في ترصيع العبارات بجمل ألاّقة أخاذة تدل على أن قلمها يقظ وثاب ، وإنها لتقف بك أحياناً في مطاوي الأقصوصة

وقفـات قصــيرة ، لتعـلق على موقف ، أو تعقب على مشهد ، كاشفة لك بالتعليق والتعقيب عن ظاهرة من ظواهر المجتمع وشؤون الحياة .

ومما يتصل بافتتان الكاتبة في صوغ أقاصيصها أنها ربما تصيدت شيئاً صغيراً في مسرح الأقصوصة ، فجعلت منه محوراً بالغ الأثر في تقرير المصير وحدوث الانقلاب .

وبعد ، فقد أرادت لي الكـاتبة بهذا التقديم أن تثير النزاع بيني وبين قرائها ، فلعل منهم من يرى في هذه الأقاصيص غير ما أرى ، وإذن تقف هي على مرقبة منا تتفرج ، وقد اطمأنت نفسها بما بلغته من شـأو ، فالنزاع إنما يكون حيث يبلغ العمل الفني مرتبة الجودة ، مرتبة التقدير ... مرتبة النزاع!.

محمود تيمور

الستائر الزرق

الستائر الزرق

أنا يا صديقي أسير سِحْرٍ قد هيمن عليَّ وملكني حتى أصبحت لا أستطيع منه خلاصاً . أنا مسيَّرٌ في كل ما يصدر عني ، أقولها راضياً مطمئناً ، ولا فرق عندي إن سحرتني التمائم والتعاويذ ، كما تعتقد أنت وأمي ، أو سحرتني نبالة ، وأنوثة كاملة ، وطيب أخلاق كما أعتقد أنا . المهم أنني سعيد بهذا السحر ، حريص عليه لا أرضى منه فكاكاً كائناً ما كان .

لماذا تنكر يا صاحبي وقد عهدتك صريحاً شجاعاً ؟، أنا موقن أن أمي هي التي دفعتك إليَّ عساك تنجح في إقناعي حيث فشلت هي . فتعال أقص عليك حكايتي ، ثم أحكم عليَّ بما شئت .

كانت أمي تغتنم دائماً غياب زوجتي فتقول لي :

إن قلبي يا بني ليحترق عليك أسى كلما رأيتك إلى جانب زوجك الكهلة التي لا تنجب أطفالاً . فكنت أحياناً أروغ من هذا الحديث ، وأحياناً أرجوها أن تدعني وشأني ، فأنا سعيد مع تلك التي اخترتها لنفسي . ورضيت بها .

ولكن لا أخفي عليك أنني منذ شهور قليلة أخذت أصغي إلى حديث أمي ، وأصبحت كلماتها تنفذ إلى أعماق نفسي .

كانت تقول لي فيما تقول :

كيف تصبر يا بني دون أن ترزق أولاداً وقد مضى على زواجك عشر سنوات ؟ !...

لا أدري والله كيف تجد السعادة طريقها إلى بيت خال من الأطفال . فهم الذين يجعلوننا نستسيغ الحياة فننسى في رنين ضحكاتهم همومنا ، وهم الذين يبددون السأم والملل اللذين ينتابان الزوجين من حين لآخر .

إنه لحق ما تقوله أمي . لقد بدأ الملل يدب بيني وبين زوجي !... فكنا إذا سهرنا في البيت تمر الساعات الطوال دون أن نتبادل كلمة واحدة . هي تنسج ، وأنا أقرأ ... وقد يتثاءب أحدنا فيرد عليه الثاني بتثاؤب أطول . أليس هذا الركود شيئاً مخيفاً في حياة زوجين شابين ؟

كنت أحتمله فيما مضى راضياً ، أما الآن فقد أصبحت لا أطيقه . إذن أنا أريد أطفالاً ...

ومالي لا أجرؤ على البت في هذا الأمر ؟ هل أنا الرجل الوحيد الذي سيضحي بزوجه من أجل الأولاد ؟؟ مئات وألوف من الرجال ضحوا قبلي بزوجاتهم وكان لهم عذرهم المقبول .

ولكنني لا أحب يا صديقي أن أمضي في خداعك كما خدعت نفسي فيما مضى . لقد كان من وراء ما قلته لك صبية فاتنة تعلق بها قلبي . فما الأطفال ، وما الملل الذي حدثتك عنه إلا أعذار اختلقتها أمام ضميري لأتخلص من زوجي المسكينة ، وأفوز بتلك التي لم تتجاوز العشرين ربيعاً . وأحمد الله لأني لم أنجح فيما رميت إليه . فانظر إلى أي حد يبلغ خداع النفس أحياناً .

كانت الصبية جارة لأمي ، وكنت أجدها عندها كلما قدمت لزيارتها . كأني وإياها على موعد . وتكررت زياراتي لأمي ، كنت أزورها في الأسبوع مرة ، فإذا أنا أزورها كل يوم . والصبية الماكرة تنسج شباكها حولي .

حتى إذا اطمأنت على فريستها أخذت تملي شروطها . هي لا ترضى بي زوجاً إلا إذا طلقت زوجي وكتبت لها سنداً بألف ليرة ذهبيـة أدفعها إليها يوم أرجع زوجي . وأن أقدم إليهـا يوم عرسنـا خاتماً من الماس لا يقل وزنه عن عشرة قراريط . لقد قبلت بكل ذلك . ولكن عقدة العقد كانت كيف أفاتح زوجي الوادعة المطمئنـة في بيتهـا ، والتي تسعى لإسعادي ، كأني طفلها المدلل ؟. وخطر لي أن أثير بيننـا خصـامـاً ينتهي بالفراق ... ولكني لم أفلح . كيف تستطيع مثـلاً أن تعبس في وجه من يبتسـم لك ؟ أم كيف تشـاجر من يسالمك ، ويحتمل قساوتك بصدر رحب ، وصبر عجيب ؟.

لقـد استولى عليَّ ضيق شـديد كاد يقتـلني . أنا حائر . مضطرب ، ذاهل . لا أدري ماذا أفعل ...

لقد اشـتريت الخاتم ، وكتبت السند . ولم يبق علي إلا أن أطلقها ، وأعقد على تلك التي يهفو إليها قلبي .

واهتديت إلى طريقة أعجبتني . سأقول لزوجي إني مسافر ــ وكان من عادتي أن أسافر من حين لآخر بحكم تجارتي ــ وأطلب منها أن تذهب إلى أهلها أثناء غيابي الذي سيطول أكثر من المعتاد ، ثم أكتب إليها رسالة أعترف لها بكل شيء وسينتهي ما بيننا على أهون سبيل .

يا لها من فكرة رائعة . لماذا لم أهتد إليها من قبل ؟.

ولمـا أصبح الصباح فاتحتها بالفكرة الرائعة . وحاولت أن أكون معها طبيعيـاً جهدي ، كما اعتادت أن تراني . فإذا الاصفرار يعلو وجهها الوادع فتتهالك على أريكة قريبة منها . وتجلس عليها مطرقة برأسها إلى الأرض . ولاح على فمها شبح ابتسامة حزينة ، وأخذت تهز رأسها كأنها تقول :

هذا ما كنت أنتظره !!!

ياإلهي ماذا اعتراها حتى استولى عليها هذا الوجوم ؟

هل علمت بالذي نويته لها ؟ وكيف تناهى إليها الخبر ؟ تباً لهذا البلد الذي لا يكـتم سـراً . وأردت أن أتكـلم فجف الريق في حلقي ، وغابت الكلمات عن ذهني . فلم أجد ما أقوله .

وجلست على الأريكة المقابلة . وساد بيننا سكوت ثقيل . فمددت يدي إلى جيبي لأخرج علبة التبغ ـــ ألا نلجأ إلى اللفافة في حالاتنا العصبية لننفس عن صدورنا ؟. فإذا يدي تعثر بعلبة مخملية صغيرة . يا لي من أبله بليد ! لقد نسيت الخاتم في جيبي . وسرت فيَّ رعشـة عندما لمسته كالمجرم عندما يرى أداة جريمتـه . لا بد أنها رأته وفهمت كل شيء . كنت أتحاشى النظر إليهـا خوف أن تلتقي نظراتنـا فتقرأ في عيني شيئاً ، ثم اختلست منها نظرة ، فإذا هي ما زالت على وضعها الأول ، كأنها تمثال من حجر ، يبدو عليهـا الترفع والكبرياء رغم الحزن العميق وقد وضعت يداً فوق يد . يداها البديعتـا التكوين ما زالتا بضتين تشبهان يدي الجوكوندا وقد أخذ يلمع في أصبعها خاتم الزواج .

أي ذكرى أليمة حملها إلي هذا الخاتم ...

يوم جثـوت أمامهـا على ركبتي ، وأخذت أقبـل يديها البضتـين . ثم مددت يدي إلى جيبي وأخرجت هذا الخـاتم بذاته ووضعتـه في أصبعهـا . فضمت رأسي إليها ، وأغمضت عيني وشعرت كأني أسعد إنسان على وجه الأرض . فإذا دموعها تتناثر حارة على وجهي .

ـــ ياإلهي أنت تبكين في أسعد ساعاتنا ؟!...

قالت بصوت متهدج :

لو تعلم كم أحبك !... وكم ضحيت في سبيلك عندما رضيت أن ألبس هذا الخاتم ... أنت تعلم أنني أكبر منك ، وقد تزوجت قبلك ولم أنجب . فلا بد أن يأتي يوم تزهد بي ، وتنتزع هذا الخاتم من يدي !! أي شقاء سينتظرني عندئذ ؟... وهل تراني أقوى على احتماله ؟؟

فضممتها إليّ وأنا أقول لها :

يـاأعز النـاس علي ، هـل يوجد على الأرض من يستطيع أن يزهد بك ؟؟.. عديني بربك أن لا تعيدي هذا الكلام على مسمعي مرة ثانية . لأنه يجرحني في صميمي .

لا شك أنها الآن تذكر كل ذلك . لماذا لا تنفجر باكية ، وتسبني ، وتشتمني وتنعتني بأبشع الألقاب ؟ كل شيء والله أهون علي من هذا السكوت الذي يكـاد يخنقني . وشعرت بميـل شديد يدفعني إلى أن أقوم فاحتويها بين ذراعي أطلب عفوها وغفرانها .

لكن لا .. فهـذا الشعور لا شك آت من تأثير السحر الذي طالما حذرتني منه أمي . فلأصمد قليلاً . هذه أصعب مرحلة في قضيتنا .

ودق جرس الهـاتف فتنفست الصـعـداء كأنـه أطلقني من أسـري . فأسرعت ورددت عليه . كانت مخابرة تافهة . ثم ارتديت معطفي ، وخرجت إلى الطريق . وركبت سيارتي وأخذت أجوب الطرقات على غير هدى ، كنت كالمحموم تنتابني شتى الهواجس ، ولم أستطع أن أركز تفكيري في نقطة واحدة لقد تمنيت والله أن يحدث لي حادث ينهي حياتي لأتخلص مما أنا به .

ولمـا حان موعد الغداء . عدت إلى البيت . وترددت كثـيراً قبل أن أدخله وتسـاءلت : ترى ماذا تعمـل هي الآن ؟. وأدرت المفتاح في الباب ودخلت كاللص . فإذا البيت على أحسن ترتيب . الأزهار نضرة منسقة في

آنيتها ، وكل شيء يلمع : الأرض ، الجدران ، زجاج النوافذ ، المرايا . يا لها من جنية !! كيف استطاعت أن تنجز ذلك كله والخادم غائبة . وهي على ما هي عليه من القلق ، والحزن والاضطراب ؟. ماذا ترمي يا ترى من وراء ذلك كله؟ أمن أجل أن تثبت لغريمتها أنها سيدة بيت من الطراز الأول؟ وبهتُ عندما رأيت حقيبتين كبيرتين في المدخل . ثم برزت هي أمامي ، وقد ارتدت ألبستها الكاملة ، كانت لا تزال شاحبة الوجه ، مكدودة العينين . وأُرتِج عليّ أمامها . ثم قالت بصوت خفيض دون أن تنظر إلي :

هل تسمح فتوصلني بسيارتك إلى بيت أهلي ؟

فأجبت بصوت واجف : كما تريدين .

ثم نظرت إلى الحقيبتين ، ونظرت إلي وقالت :
أتحملهما أنت أم أحملهما أنا ؟

قلت متلعثماً :
بل أحملهما أنا ...

وحملت الحقيبتين الثقيلتين ، ووضعتهما في صندوق السيارة ، وأنا أقول في نفسي :
ياإلهي أبهذا اليسر يتم كل شيء بيننا ؟.

ثم أطبقتْ باب المنزل بتؤدة ، وشملته جميعاً بنظرة كأنها تودعه الوداع الأخير . ثم سارت منكسة الرأس حتى السيارة ، وفتحت بابها وجلست في المقعد الخلفي على غير عادتها . وهممت أن أدعوها إلى جانبي ولكن لا .. أليست دعوتي هي السخف بعينه؟

وأدرت مقود السيارة ويداي تضطربان . فإذا هي تهتف بي قائلة :

قف . قف بربك . لقد نسيت !.. نسيت أن أغلق نوافذ غرفة الاستقبال . والشمس ستتلف **الستائر الزرق** .

فأوقفت السيارة . وعادت هي إلى البيت لتغلق النوافذ . وأسندت رأسي المتعب إلى المقود ، وأغمضت عيني وأخذت أقول في نفسي :

يامسكينة ! **مالك والستائر الزرق** ؟ إن أتلفتها الشمس أم لم تتلفها . أنت تعلمين جيداً أنها لم تعد لك . بل ستصبح عما قريب لغريمة لك . وتذكرت جيداً كم جابت الأسواق حين اشترت هذه **الستائر** حتى وفقت إلى لونها الأزرق النادر ، وكم أمضت من الأيام مكبة تطرز أطرافها ، وتخيط حواشيها . لم يدخل بيتنا أحد قط إلا امتدح هذه الستائر ، والذوق الذي اختارها ، واليد الصناع التي طرزتها .

أنت أمّ أيتها المسكينة ... أنت أم هذا البيت ، أنت أنشأته ، وأنت رعيته وأنت تريدينه سلياً محفوظاً من الأذى كما تريد الأم وليدها ولو كان في حوزة غيرها . يا لي من قاس صخري القلب ، كيف أستطيع أن أحرمك من هذا كله ؟!.

آه ليتك تنجبين أطفالاً !

ولاح في مخيلتي على الفور طيف الصبية ذات العشرين عاماً ، وهي تتثنى وتضحك وتنظر إلي بخبث وكأنها تقول :

أحقاً من أجل الأطفال تتركها ، أم من أجلي أنا ؟

ووجدتني أقفز من السيارة ، فاقطع الحديقة بخطوتين ، ثم أدفع الباب ، فأصطدم بها وجهاً لوجه خلف الباب . ثم أمسك يدها فأسحبها إلى داخل البيت ، وأنا أقول لها :

أليس من الخير يا عزيزتي أن تبقي هنا تعتنين **بستائرك الزرق** .

وفهمتْ ما رميتُ إليه فتهالكت على أول مقعد رأته وانفجرت باكية . وأخذت تنشج بصوت عال . إن أعصابها القوية التي استطاعت أن تتغلب على دموع القهر لم تستطع التغلب على دموع الفرح .

ووجدتني أجثو على ركبتي أمامها ، وأقبل يديها . ثم أمد يدي إلى جيبي فأتناول الخاتم الماسي من العلبة المخملية ، وأضعه في أصبعها . فضمت رأسي إليها وأخذت دموعها تتناثر حارة على وجهي .

لقد شعرت براحة عظيمة . كأن حملاً ثقيلاً أزيح عن كاهلي أو كأني غريق قد صارع الأمواج والأنواء . فلما انتهى إلى شاطئ السلامة ركن إلى الراحة .

فليكن هذا سحراً يا صاحبي . إني راض به . مطمئن إليه لا أرضى منه فكاكاً كائناً ما كان .

القرار الأخير

القرار الأخير

عندما تلقى أحمد أمراً بنقل وظيفته من دمشق إلى ناحية من نواحيها النائية تأفف وتذمر ولعن الحاجة التي جعلته عبداً ذليلاً لوظيفة صغيرة .

صعب عليه أن يترك دمشق ، وفيها ناديه الليلي ، وقهوته النهارية . وكان يعرف أن لا فائدة من الاعتراض على هذا النقل فسار إلى مقر عمله الجديد صابراً على مضض . وفي الغد باشر وظيفته .

كان زميله الذي يقاسمه مكتبه رجلاً ذا فطنة وظرف ، لاحظ أن أحمد رفيقه الجديد أديب مهذب . وأدرك الخيبة التي تصيب شاباً لا زوج له ولا ولد ، حكم عليه أن يترك دمشق وما فيها من لهو وسلوى إلى هذا البلد الموحش المقفر حتى من دار صغيرة للسينما . فأحب أن يخفف عنه بعض الشيء ، فأخذ يحبب إليه الانضمام إلى رحلات يقوم بها بعض الموظفين في نهاية الأسبوع إلى الجبال والأودية القريبة . حيث الطبيعة الأخاذة ، والصيد الوفير . وسهرات يقضونها في تبادل النكات ، ولعب الورق يشترك فيها أحياناً الموظفون الذين يرغبون بمظاهر المدنية الحديثة ، فيصطحبون معهم أسرهم ، ويسهرون في دار المدير ، فيسمرون حيناً ويستمعون لآلة الراديو حيناً آخر ، لأن المدير هو الموظف الوحيد في القرية الذي يملك آلة راديو . وهو رجل مضياف ، أنيس وديع في بيته ، بقدر ما هو حازم وجاد في وظيفته ، وزوجه شابة أنيقة لبقة ، تعرف كيف تسلي ضيوفها وتخلع على سهراتها جواً بديعاً من المرح

والوقار . فإذا أحب أحمد أن يصطحبه في سهرة إلى دار المدير فعل . لأن لديه من الثقة بالمدير وزوجه والدالة عليهما ما يجيز له أن يصطحب معه صديقاً يقدمه إليهما .

رضي أحمد شاكراً ، لاحباً بمديره المضياف ، ولا رغبة في زوجه الأنيقة اللبقة . ولكن على أمل أن تكون السهرة هناك أصلح حالاً من السهر في غرفته الباردة ، ومصباح المدير أبعث نوراً من مصباحه الضئيل .

عندما قدمه زميله لزوج المدير ذهل أحمد ، وبالكاد استطاع أن يحبس شهقة كادت تخرج عالية من فمه . إنها سلمى ، مثله الأعلى يعيدها القدر إليه بعد أن أضاعها عشر سنين كاملة .

جلس أحمد في زاوية منفردة ، وأخذ يرد على الأسئلة والمجاملات التي توجه إلى زائر جديد رداً مقتضباً ، متظاهراً بالاهتمام بما تذيعه آلة الراديو من أغان وأحاديث ، أما عقله فكان قد شرد وشرد بعيداً جداً ، عشر سنين إلى الوراء .

ترى هل تذكرت سلمى ذلك الشاب النحيل الأسمر الذي كان يتبعها عندما كانت في السابعة عشرة تسير في الشارع ذهاباً لمدرستها وإياباً منها فيتبع خطواتها ويبعث إليها بكلمات دعابة رقيقة . وكثيراً ما كانت تبتسم لكلماته ابتسامة مشرقة تسفر عن أسنان تلوح نضيدة لألاءة خلف نقابها الشفاف . فتبعث ابتسامتها فيه أملاً وسحراً . وربما لازمه طيفها بعض الليالي حتى الصباح .

كان هذا ديدنه سنة كاملة . حتى عاد يوماً من رحلته الكشفية فلم يجدها ولما سأل عنها قيل له : إن رب الأسرة غريب عن دمشق ، فلما أحيل على التقاعد آثر العودة إلى بلده .

فعرف أنه حرم منها إلى الأبد . ولا يزال يذكر كم كان شاقاً عليه ذلك الحرمان . فأحنى على نفسه يومئذ لوماً وتقريعاً . ولكم وصف نفسه بالجبن والغباوة لأنه لم يكتب إليها ولم يفتش عن سبيل للتعرف عليها ، أما كانت ابتسامتها كافية لتشجيعه على الكتابة إليها ؟ تباً لهذا النقاب الشفاف ، إنه حاجز منيع يحول دون التعرف بين الرجل والمرأة مهما شفّ ورقّ !... من يدري ؟ لعلها كانت تبادله شعوره ... ولو أنهما استطاعا أن يتفاهما لأخلص كل واحد لصاحبه ، ولكانا اليوم زوجين سعيدين .

عاد أحمد من سهرته . ولو سئل عنها كيف كانت ، لما استطاع أن يجيب شيئاً . لأنه ما وعى منها حديثاً . ولم يبق في ذاكرته إلا رسم قوام أهيف يصلح نموذجاً لفنان ، وابتسامة مشرقة ما زالت كعهده بها تسفر عن أسنان نضيدة لألاءة ، غير أنها كانت فيما مضى تبعث فيه أملاً وسحراً أما الآن فقد بعثت فيه ألماً ويأساً ، وشعوراً قوياً بالحرمان .

مضى شهران . فإذا أحمد صياد ماهر ، يجوب الجبال والأودية القريبة ، يمتع نفسه بالطبيعة الأخّاذة ، وصديق حميم لبيت المدير ، يتحفهم من حين لآخر بصيده الوفير ويحظى بالابتسامة المشرقة .

ولو سئل عن حاله لأجاب أنه قانع ، ولربما سعيد . ولعله لو خير بين العودة إلى دمشق . وفيها ناديه الليلي ، وقهوته النهارية لآثر البقاء في الناحية الموحشة التي صارت في نظره عامرة آهلة .

ولكن سوء طالعه لم يشأ أن يمتعه طويلاً بهذا النزر اليسير من السعادة والرضى . فيؤم الناحية مفتش كبير ، ويثني على المدير وحسن تصرفه ويريد أن يكافئه ، فيترك له الخيار في أن يبقى في ناحيته ، أو ينتخب ناحية أخرى قريبة من دمشق .

لقد فرح المدير بهذه المنحة . وأحال الأمر على زوجهً فهي أحرى أن تبت فيه .

قلق الموظفون لفراق مديرهم . وكان أحمد أشدهم قلقاً . أتعاوده غباوته وجبنه المعهودان فيحرم من سلمى مرة أخرى ؟

كلا ... ليس هو ذاك الفتى الغر ، لقد أصبح رجلاً كامل الرجولة ، له صولات وجولات في ميدان الحب والغرام ، ألم تبادله سلمى نظرات بنظرات ؟ ألم تجاهر بإعجابها به ؟ ألم تثن على آرائه وتستسيغ نكاته ؟ فما عليه إذا كتب إليها يرجوها أن تبقى ؟ أو حسبه أن تعلم أنه أحبها ، وظلت مثله الأعلى عشر سنين كاملة وستبقى كذلك دائماً أبداً .

تلقت سلمى رسالة أحمد ، وقرأتها مرات عديدة ، وفي كل مرة كان قلبها يضرب بقوة وعنف . وحارت بماذا تجيب .

وفي المساء أوت إلى السرير الذي كانت تقتسمه هي وزوجها . وظلت فريسة صراع عنيف قام بين ضميرها وعاطفتها حتى الفجر . كانت العاطفة تطغى فتقرر البقاء لتتمتع بهذا الحب الذي هبط عليها من السماء ، وسوف لا يجود به الدهر مرة ثانية . سترعاه نقياً طاهراً ، وستجعله مقتصراً على النظرات المختلسة ، ودقات القلب العنيفة اللذيذة . ولكن الضمير كان يغالب العاطفة ويكبتها بآيات بينات . ألم تبتدئ قصص الحب التي قرأتها أو سمعتها بنظرات بريئة ، وتنتهي بآثام مريعة ؟ أتجيز لنفسها ما آخذت عليه الآخرين .

وأخيراً استطاعت أن تخرس الضمير ، وتصمّ أذنيها عن آياته البينات . وتقرر البقاء .

كان الإعياء قد بلغ منها كل مبلغ . فشعرت بالحرارة تتمشى في

أطرافها ، وأحست وهجها في خديها . وفي حركة عصبيـة أزاحت الغطاء بعيداً ، وأخرجت ذراعيها العاريتين رغم البرد الشديد .

شعرت سـلمى بحركة خفيفـة خلف ظهرها . فإذا يد تمتد بعطف وحنان ، فتسحب الغطاء برقة وأناة ، وتحكمه حول عنقها ، وفي منحنـى خصرها ، وأصابع رفيقة تجس الخد جساً لطيفاً لتطمئن هل هناك حرارة .

وكأن الأصابع الرفيقة عندما مست الخد ، مست الضمير أيضاً فتنبه مرة ثانية ، ولكنه كان أكثر نشاطاً ، وأدعم حجة ، وأقوى برهاناً فاستطاع أن ينتصر .

فإذا زفرة حرى تخرج من أعماق قلبها ، ودمعتان كبيرتان تجولان في عينيها ، أما شفتاها فقد تمتمتا كلمتين قاطعتين حازمتين :

سنسافر غداً .

وكان هو القرار الأخير .

قصة مهدي افندي

قصة مهدي أفندي

كم تمنى مهدي أفندي لو نشأ حب عنيف بينه وبين أي فتاة من هؤلاء الفتيات الرشيقات اللواتي يشاهدهن في شوارع دمشق ومتنزهاتها ، وقد أسدلن على وجوههن نقباً شفافة تزيد حلاوتهن سحراً ، وجمالهن إشراقاً .

ولكن الحِب في دمشق ، الرازحة تحت أعباء من العادات القديمة القديمة ، والتقاليد البالية أمر عسير صعب المنال . مهما سعى إليه الساعون ، ورغب فيه الراغبون . خاصة في ذلك العصر الذي كان يسيطر فيه الحجاب سيطرة تامة ، فالحب وقتئذ كان أمراً منوطاً بالمصادفات .. والظروف تلعب به كيفما شاءت . فلربما جادت على أناس فنعموا به . وشربوا من رحيقه حتى الثمالة إلى أن عافوه وملوه ، إن كان يعاف ويمل . ولربما بخلت به على آخرين فظلوا عطاشاً إليه مدى الحياة يزيدهم الحرمان رغبة فيه ، وشوقاً إليه ، حتى كان في حسبانهم الفردوس المفقود .

وكان مهدي أفندي من هؤلاء التعساء الذين بخلت عليهم الظروف والصدف رغم قوامه المشيق ، ووجهه الجميل . ولطالما نقم مهدي أفندي على حسنه وجماله ، وتساءل ما فائدتهما ؟ إذا لم يجدياه نفعاً في ميدان الحب والغرام ، حيث في عرفه يفوز الحسن ويغلب الجمال .

وإن نقمته لتزداد حدة كلما حدثه صديقه ذلك **القزم الدميم** عن حبيباته الثلاث وعن تفانيهن في سبيله ، وغيرتهن عليه ، ولربما قرأ له بعض رسائلهن المليئة بالدلال والعتاب ، والشوق والهيام .

إنه لا يزال يذكر عندما كان في العشرين من عمره كيف كان يخرج مع رهط من صحابه في يوم الجمعة من كل أسبوع . ييممون شطر سفح جبل قاسيون في الأيام المشرقة من الشتاء قصد النزهة . وفي الحقيقة كان دأبهم ملاحقة الفتيات المتنزهات ، اللواتي كن يسرن فرادى وجماعات ، وكأنهن مع هؤلاء الفتيان على ميعاد . وكثيراً ما كن يجلسن على سفح جبل قاسيون الشامخ ، يحسرن أنقبتهن قليلاً ليمتعن الأنظار بمرأى الفيحاء الغارقة في بحرها الزمردي ، فيمر هؤلاء الفتيان من أمامهن ويلقون إليهن بكلمات غزل رقيقة تتلقاها الجميلات الحسناوات منهن بالرضى والابتسام ، وتتلقاها القبيحات المنكرات بالزجر والسخط غيرة على الفضيلة ، وحرصاً على مكارم الأخلاق .

وإذا كان الصيف التمسهن في مقاصفه دمر والربوة . وعلى حفافي بردى وتحت صفصافه الوارف الظلال .

وإذا كان الربيع ، وازدهرت أشجار المشمش والأجاص ، تبعهن مع رفاقه إلى مغاني الغوطة ومفاتنها ، حيث كثيراً ما كانت هاته الفتيات تتحررن بعض الشيء من حجابهن البغيض إليهن كثيراً ، فيسفرن عن وجوه تشيع فيها الصباحة والملاحة ، اللتان كثيراً ما جادت بهما الطبيعة على بنات الشام . وعندها يحدث بين الشبان جدل وجلبة . هذا يؤكد أن ذات العينين العسليتين والأهداب الطويلة قد غمزته ... وهذا يصر على الرفاق أن يتبعوا هذا السرب من الفتيات لأنه توهم أن فيهن واحدة قد ابتسمت له ابتسامة مغرية . وذاك يكذب على الرفاق فيلفق قصة مفادها : أن بين هؤلاء الفتيات فتاة تبادله الحب والغرام . وإنه لضنين بذكر اسمها خوفاً عليها من الفضيحة ، فهي من أسرة محافظة جداً ، وأقل إشاعة في هذا الصدد ستقضي على حبه القضاء الأخير . ولكن الرفاق يصرون على معرفة الفتاة ، وهو يصر على

الإنكـار ، ثم تقع الشبهـة على فتـاة صفيقـة الحجاب ، هيفاء القد ، بضـة اليدين . فيتظاهر هو بالاضطراب الشديد ، ويحلف بأغلظ الايمان أنها ليست هي . وما ذاك إلا ليثبّت التهمـة على الفتاة المسكينة ، وإنه لمغتبط في قرارة نفســه ، لأن الحيـلة انطـلت على الرفاق ، وأصبحوا يحسـدونه على حظـه السعيد . وخاصة مهدي أفندي .

ولا يعود الفتيان من نزهتهم التي قد تمتد طول النهار ، إلا إذا عادت الفتيـات ، ليركبـوا معهن حـافـلات الترام ، ويتعمـدوا الزحـام ليدافعوهن بالمناكب ، ويلمسوهن بالأيدي .

وإن ينس مهدي أفندي لا ينسى صبية شقراء اتفق أن رآها ذات أصيل تسير صحبة عجوز شمطاء في أحد شوارع دمشق . فأخذ بجمالها الفتان الذي لم يكن قد شاهد نظيره إلا في الصور والرسوم . وكانت الصبية ترتدي معطفاً أبيض ناصع البياض ، وقد أسدلت على رأسها نقاباً كحلياً شفافاً جداً . وأخذ شعرها يلمع من تحته كخيوط من ذهب . أما عيناها فكفيروزتين نقيتين ولكن لهما بريق الماس . وقد صبغت شفتيها بلون العقيق .

تبعها مهدي أفندي على غير هدى مسافة طويلة . وكان في طبعه حياء وخجل وإباء وترفع . ولكنه في هذه المرة تغلب على حيائه وخجله ، وتنازل عن إبائه وترفعه ، وتقدم من الصبية حتى حاذاها . ثم مال عليها قليلاً وهمس :

ياروحي على الجمال !..

فإذا العجوز تلتفت إليه لفتة منكرة ، وتصرخ في وجهه بأعلى صوتها :

إلى متى تتبعنا ؟ يا كلب ، يا سافل ، يا قليل الحيا يا عديم الشرف والحمية ، والمروءة !...

وإلى هنا لم تعد أذنا مهدي أفندي تعيان شيئاً مما تتفوه به العجوز . فقد طفر الدم إلى وجهه ، وتصبب منه العرق ، وود لو انشقت الأرض وابتلعته . لاسيا عندما رأى بعض المارة يضحكون منه هازئين به . وبعضهم يتمتم لاعناً فتيات هذا الجيل وتبرجهن الخليع الذي لا يقوى هؤلاء الشبان المساكين على مقاومته .

ورغم كل ذلك لمح مهدي أفندي على وجه فتاته ابتسامة رقيقة لم يدر أكانت هازئة به مع الهازئين ، أم مشفقة عليه من عجوزها الشمطاء ، ولسانها السليط ؟.

ومنذ ذلك اليوم حرّم على نفسه أن يغازل ، أو يلاحق ، أو يكلم فتاة في الطريق ولو كانت من الحور العين !.

وثبت مهدي أفندي على تحريمه .

ومرت أيام ، تلتها شهور ، تبعتها سنون وسنون . وعت ذاكرة مهدي أفندي خلالها أشياء ، ونسيت أشياء ، إلا صورة واحدة ما زالت ماثلة في مخيلته كأنه رآها اليوم .

الخيوط الذهبية تلمع من تحت النقاب ، الفيروزتان النقيتان ، الشفتان المصبوغتان بلون العقيق ، المعطف الأبيض ، النقاب الكحلي الذي يعكس لوناً بنفسجياً على صفحة الجيد العاجية . السحر والفتنة في كل لفتة وفي كل خطوة .. وإلى جانب هذه الصورة الملائكية ، صورة عجوز شمطاء يقذف فمها السباب والشتائم كما تقذف البراكين الحمم .

كم تمنى مهدي أفندي لو كان رساماً بارعاً لأبدع من الصورة الملائكية الماثلة في مخيلته لوحة فنية خلدها على الدهر ، أو ليته كان شاعراً لنظمها

قصيدة عصماء ، أو مثّالاً لأنطق منها الحجر . ولكن مهدي أفندي لم يكن واحداً من كل هؤلاء ! ...

إنما هو قاض في محكمة شرعية ، يفصل في القضايا التي تعرض عليه باستقامة ونزاهة لا تشوبهما شائبة . ومنذ ماتت أمه وتزوجت أخته إلى بلد بعيد عن دمشق ، يعيش مهدي أفندي في عزوبة مملة ، وفي بيت صغير تقوم على تدبيره امرأة عجوز .

وقد رغب عن الزواج لأنه لا يؤمن به إلا إذا سبقه حب جارف ، أو إعجاب بالغ ، وما من سبيل إليهما ومهدي أفندي على تزمته وترفعه اللذين يزدادان عنتاً بحكم وظيفته .

وإن كان في حياته شيء يدخل عليها السرور والحبور فهو هذا الثناء العاطر على عدله واستقامته ، والذي ينهال عليه من أفواه كل من عرفهم من الناس . وهو فخور بميزته هذه أشد الفخر ، قوي الإيمان بنفسه يعتقد أنه لا يوجد على سطح هذه الأرض من يستطيع أن يزحزحه قيد أنملة عن نصرة حق أو إزهاق باطل .

وما راعه ذات صباح إلا امرأة عجوز استأذنت بالدخول عليه في بيته ، ولما رآها عرفها فتمتم :

ياللعجوز الحيزبون ! ألم يأت عليك الدهر بعد ؟ إن أمثالك يعمرن طويلاً !! ..

ولكن فم العجوز الذي قذف مهدي أفندي فيما مضى بالسباب والشتائم ، أخذ في هذه المرة يبذل معسول الكلام ، ورقيق الأرجيات :

سيدي القاضي ! يا أنزه القضاة وأعدلهم ، يا أشرف الناس وأنبلهم .

غداً ستعرض عليك قضيـة ربيبتي وابنـة أختي تطـلب الطلاق من زوجها . أرجوك يا سيدي القاضي أن لا تصدق دعواه الكاذبة ، وافتراءه الآثم . إنه والله منذ خسر ثروته في مغامرات فاشلة عكف على الشراب والميسر . وما زالا ينـالان من صحتـه وثروته حتى أتلفـاهما . لقد باع حلي زوجته ، وأتى على أثاثها . أقسم لك يا سيدي القاضي إنها لجائعة عارية في كنفه . ومن أين له أن يقوم بأودها وهو لا يملك ثروة ولا صحة . لقد صبرت عليه كثيراً فجازى صبرها شر الجزاء . وأخذ يسومها أنواع الخسف ، وضروب العذاب ...

آه يا سيدي القـاضي لو رأيتهـا ! .. إنها والله ذات صون وعفاف ، وحسن وجمال ، قؤوم على البيت ، رؤوم بالأهل . ولكن ما الحيـلة وحظها عاثر ؟!. إنها والله لتـليق برجل عظيم . ورنت إلى القـاضي بنظرة تغني عن الكلام .

فأجابها باتزان :

اطمئني ياسيدتي سيأخذ العدل مجراه ...

وغيرت نظرة العجوز رأي مهدي أفندي فيها فقال في نفسه :

يالها من عجوز مسكينة ! تظهر طيبة القلب ، رقيقة العواطف . أرجو أن تكـون صــادقة في دعواها . ولمع في ذهن مهدي أفندي خاطر بسـرعة البرق ، خفق له قلبه ، وهشت نفسه .

ترى هل آن الأوان ليودع مهدي أفندي عزوبته المملة . ويحظى بأسعد أمانيه ؟؟...

ولـما كان الغد وعاد مهدي أفندي من وظيفتـه إلى بيته كان مشتت الذهن ، وبات ليلة منكرة جفاه فيها النوم ، وعاداه الكرى . وأخذ يلح عليه سؤال أعياه جوابه :

ترى هل كان على حق عندما حكم بالتفريق بين المرأة وزوجها ؟. أم فرق بينهما لغاية في نفس يعقوب ؟..

ثم يتملكه رعب شديد كلما فكر بنظرات الزوج النارية الناطقة بالحقد والقهر ، والتي حدج بها القاضي عندما نطق بالحكم . ولأول مرة تحاشى مهدي أفندي نظرات محكوم . ثم تهدأ نفسه قليلاً عندما يتمثل الصبية واقفة أمامه تنظر إليه بضراعة واستعطاف وما زالت الخيوط الذهبية تلمع ، والفيروزتان تتألقان ، غير أن القوام امتلأ قليلاً عما عهده . وهذا مما سر مهدي أفندي وراقه كثيراً .

ولما مضى الليل إلا أقله ، كان قد اهتدى إلى دفاع قد برر به نفسه أمام ضميره . ألم يوجد العدل على الأرض ليعم السلام والوئام بين الناس ؟.

أليس هذا الرجل الذي حكم بالتفريق بينه وبين زوجه في نكد من العيش وهو يعاشر امرأة تناقره وتناكفه ليلاً نهاراً ؟

أليست هذه المرأة في نكد من العيش وهي تعتقد أنها مهضومة الحق عاثرة الحظ ؟.

أليس مهدي أفندي في نكد من العيش ؟. وأي نكد !!.

وارتاح إلى دفاعه هذا فنام مطمئن النفس ، مرتاح البال .

وجد مهدي أفندي من الأنسب أن يتريث قليلاً في خطبة الصبية كي لا يثير حوله الشكوك والريب . ولا بد من شهور معدودة لكي يجوز الزواج . وفي أثناء ذلك قرر أن يبني داراً تليق بالحبيبة الغالية . فباع كل ما ورثه عن أبويه ، وضم إليه كل ما ادخره وقتره على نفسه ، حتى إذا صار لديه مبلغ من

المال لابأس به اشترى قطعة أرض في أحسن حيّ ، وباشر في بنائها على أحدث طراز .

وما هي إلا شهور قليلة حتى انتهت الدار من بنائها ، وجاءت وفق ذوقه تماماً ولم يبق إلا زخرفها الخارجي ، وتنسيق حديقتها .

وأخذ مرة يتفقد غرفها وطنفها : هذه غرفة الضيوف ، وتلك قاعة الطعام ، ولما وصل إلى غرفة الزينة شط به الخيال فتمثل فاتنته الغالية جالسة أمام المرآة في غلالة رقيقة ، تمشط شعرها الأشقر الكثيف ، وترش العطور على جسمها البض وتصبغ شفتيها بلون العقيق ... وعندها كاد يغمى على مهدي أفندي من روعة الخيال وبهجته !... وقرر أن يرسل في الغد إحدى قريباته لتخطبها له ، وليتقول ما شاء المتقولون ..

وعاد إلى بيته الصغير وهو يكاد يطير فرحاً وحبوراً . وما كاد يدخل حتى ناولته خادمة رسالة وردت إليه من صديقه **القزم الدميم ذي الحبيبات الثلاث** . فضها بسرعة وقرأفيها :

أكتب إليك وأنا في شهر العسل . لكم أنا مدين إليك بسعادتي وهنائي ... فأنت الذي حكمت بطلاق حبيبتي من زوجها الغاشم . وإن زوجتي لا تنسى نظراتك الحادبة عليها المليئة بالعطف والحنان ، والتي كنت توجهها إليها أثناء المحاكمة . وقالت لي أيضاً أن وجهك الوديع ليس بغريب عنها .

أرجو لك سعادة كسعادتي ، وهناء كهنائي فأنت جدير بهما يا أنزه القضاة وأعدلهم .

مزق مهدي أفندي الرسالة إرباً إرباً . وما من أحد يستطيع أن يصف

لنا ليلته الليلاء ، وفجرها البعيد !. فقد عاف سريره ، وأخذ يذرع أرض غرفته جيئة وذهاباً يكلم نفسه كمن به مس . ولولا لطف من الله ورحمة لجن مهدي أفندي جنوناً يائساً !.

عجب أهل الحي الذي بنى فيه مهدي أفندي داره الجديدة وتساءلوا :

لماذا لم يتمم بناءها ؟، ولم يسكنها أو يؤجرها ؟ بل أغلق بابها وتركها تعشش فيها البوم ، وتسرح الهوام .

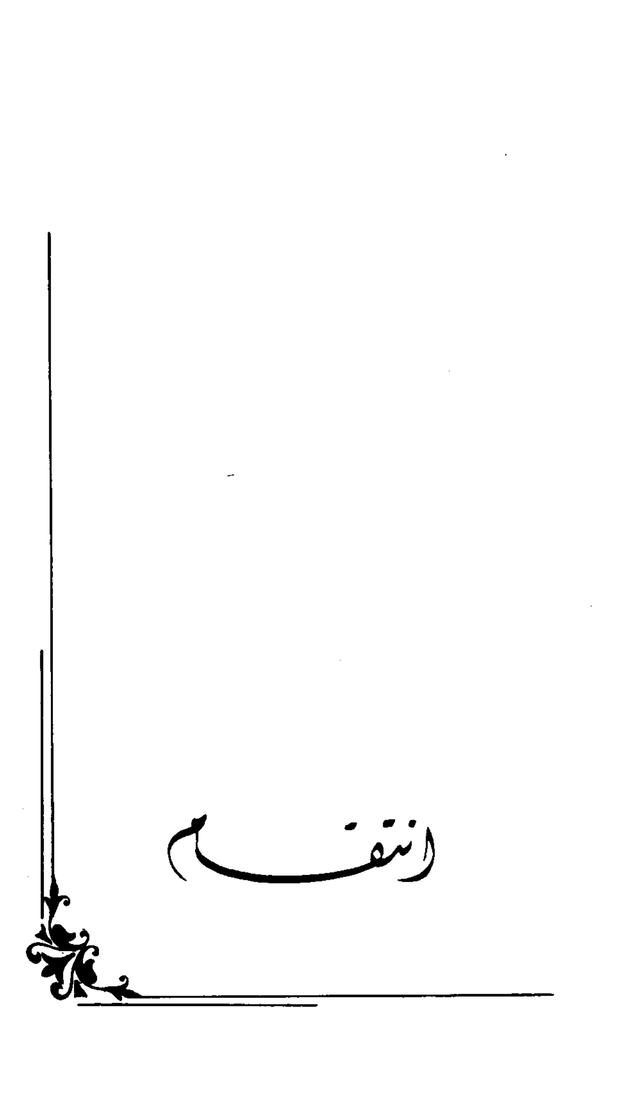
وعجب موظفو المحكمة الشرعية وتساءلوا :

لماذا تبدلت أحكام القاضي مهدي أفندي من اللين إلى الشدة ، ومن الرحمة إلى القسوة وخاصة مع النساء .

وعجب أصحاب مهدي أفندي وتساءلوا :

لماذا صدف مهدي أفندي عن مجالستهم ، وانطوى على نفسه ، وتحول من ممراح ضحوك ،إلى كئيب غضوب ؟

وما منهم من عرف أن مهدي أفندي **فشل بالحب فنقم على كل شيء !!..**



انتقام

انتقـــام

منذ أنهيت دراستي الجامعية ، لم تجمعني الأيام بصديقي منير . وكان ذلك منـذ خمس سـنوات خلت ، عندما غادرنا الجامعـة كل إلى بلده . ثم تركت المحاماة التي أعددت لها نفسـي ، بعد أن فشـلت فيها فشـلاً ذريعاً . وانصرفت إلى التجارة ، وانغمست في خضمها ، وتصادقت مع زملاء لي من التجـار . وكان من جراء ذلك أن تقطعت الأسباب بيني وبين كثيرين من أصدقائي وزملائي الجامعيين . وكان منهم صديقي منير . وقد شاءت المصادفة أن ألتقي به في ليلة من ليالي الشتاء في بلدة قصدتها لبعض أعمالي التجارية . وكان مقدمي ليلاً . ولما لم أجد ما ألهو به أخذت أجوب الشوارع والأسواق ، إلى أن قادتني قدماي إلى حانة كبيرة . وما كنت يوماً من رواد الحانات ، ولا أدري ما الذي جذبني ليلتئذ لدخول هذه الحانة . فما وجدتني إلا وأنا احتل إحدى موائدها . وكان يجلس غير بعيد مني رجل يترع الكأس تلو الكأس بلا روية ، ولا هوادة . ثم رأيته يقوم مترنحاً ويمضي إلى فتاة من فتيات الحانة تجالس شـاباً أمام إحدى الموائد ، فيداعبها بغلظة ، ويحاول أن يرغمها على الجلوس معه . وتأبى عليه الفتاة فيجذبها بقوة وعنف . ويثور الشاب الذي يجالسها على هذا الثمل العربيد ، ويجرب أن يصرفه بالحسنى ، ولكنه يتفوه بكلمات بذيئة تخرج الشاب عن طوره ، فيتناول كأساً من أقرب مائدة إليه ويحطمها على رأس السـكـير . فينبثق الدم غزيراً من جبهتـه ، ويقع على الأرض فاقد الوعي . وتحدث في الحانة ضجة وجلبة ، ثم يسرع الخدم فيرفعون الجريح عن الأرض ويمرون به من أمامي فأعرف فيه صديقي (منيراً) .

ولم يخامرني أدنى شك أنه هو عندما قال أحد الخدم :
أفي كل ليلة يتحفنا الأستاذ منير بفصل من هذا النوع ؟!.

ورأيت من الوفاء أن أرافقه إلى المستشفى ، وتركته هناك وهو لا يعي شيئاً . وعدت إلى نزلي أحاول النوم فيمتنع عني لكثرة تفكيري بصديقي منير وبالمصير السيء الذي انتهى إليه . وترجع بي الذكرى إلى أيام الجامعة ، يوم عرفت منيراً شاباً رزيناً هاديء الطباع ، يكاد أن يكون معصوماً عن زلات الشباب ، بادي النشاط والذكاء ، ويتمثل أمامي الآن سكيراً ، عربيداً ، يبدو هرماً وهو لا يزال في شرخ شبابه ، تلفظه الحانات ، ويتعوذ منه الخدم لكثرة عربدته . وما زال هذا حالي حتى أصبح الصباح فكنت أول من طرق باب المستشفى .

تلقاني منير بدهشة واستغراب ، وما دري أني أنا الذي جئت به البارحة إلى المستشفى ، ولما عرف مني ذلك أسف أشد الأسف على هذه المصادفة الغريبة ثم قال :

ــ أظنك قد عجبت من حالي هذا .

ــ وأشد العجب وما جئت لأطمئن عن جرحك فما هو بذي بال .

ــ هذا صحيح يا صاحبي . ولكن هناك جرحاً آخر لا يرجى شفاؤه !

ماأسرع أن تشفى جراح الأجسام ، أما جراح النفوس فمن أين لها الشفاء ؟!

ــ يجب أن لا نيأس . فليس هناك جراح لا يرجى شفاؤها .

ــ كأنك تريد أن تسمع قصتي . فإذا وعدتني بأن لا تحاول نصحي وإرشادي قصصتها عليك .

ـــ إنه لشرط قاس .

ـــ هو ذاك إذا أحببت أن تسمع القصة .

ـــ مكره أخاك لا بطل .

فابتسم منير وقال :

ـــ إني يا صديقي انتقم !!!

قلت دهشاً : تنتقم ؟؟!..

ـــ نعم ومن أبي ! فهو الذي شاء لي هذا المصير السيء . وضحك ضحكاً ساخراً ثم استوى في السرير وقال :

أظنك لا تجهل حبي لابنة خالي إلهام . فلطالما حدثتك عنه أيام الجامعة . سمه عشقاً ، أو هوساً ، أو جنوناً إن شئت . القصد أنه ملك علي حواسي وشعوري وجعلني لا أرى في هذه الدنيا سوى امرأة واحدة ، هي إلهام . لقد مضى عليّ في الجامعة ثلاث سنوات كنت خلالها سعيداً حقاً . وكنا نتبادل الرسائل فننعم بالأماني الحلوة ، والأحلام العذاب . ونمني النفس بزواج سعيد . فأنا وحيد أبوي كما تعلم ، ووالدي ينتظر زواجي كي أنجب له من يرث ثروته الطائلة . فلما ودعت الجامعة وعدت إلى أهلي وأنا أطفح أملاً وبشراً . فاتحت أبوي في أمر زواجي من إلهام ، فلم يمانعا أبداً . بل تلقته أمي بكثير من الغبطة والانشراح ، وتلقاه أبي بشيء من التحفظ والفتور أثار عجبي . واتفقنا إذا كان الغد أن نزف البشرى إلى إلهام وأهلها . فلما أصبح الصباح كان خبر خطبتي لإلهام قد شاع بين خدمنا . فإذا خادمة كهلة تدخل على أمي صارخة مهوّلة قائلة :

يالسخط السماء ! أتزوجون منيراً بإلهام ؟؟ أتزوجون الأخ بأخته ؟!

إنهما أخوان . وقد أرضعتهما من ثدي واحد . ألا تذكرين ذلك ؟. فبهتت أمي وقالت :

لاأذكر شيئاً من هذا أبداً .

ولكن الخادم اللعينة أكدت الأمر . وحلفت يميناً مغلظة أنها أرضعتنا معاً ...

فوقع علي الخبر وقوع الصاعقة ، وضاقت الدنيا في عيني على رحبها . وأخذت أمي تخفف من ألمي بحنانها الفائض ، وبشعورها معي ، ومشاركتها إياي محنتي . وأظهر أبي بعض الأسف . أما أنا فصممت أن لا أعير هذا الأمر أية أهمية . فأنا لا أشعر نحو إلهام شعور الأخ نحو أخته . ولما سمع أبي مني ذلك كبر عليه الأمر وهو التقي الورع . واتهمني بالمروق والإلحاد . لا سيا وأحكام الدين صريحة . فلم يسعني إلا أن أرضخ مرغماً .

واختلط علي الأمر ، فلم أعد أستطيع أن أنظر إلى إلهام كأخت ولا كحبيبة . وأخذت أفر منها وأتحاشاها جهدي . فانطوت المسكينة على نفسها . والذي آلمني وحز في نفسي أن إلهام أخذت تشك في حبي لها ، واعتقدت أني كرهتها فدبرت هذه الحيلة لأتخلص منها ...

وكانت صدمة قاسية لها ، فاستسلمت ليأس قاتل ، وأخذ شبابها يذوي ، إلى أن اختطفها الموت غصناً رطباً ! فحزنت وأمي عليها أشد الحزن . ثم أخذت الأيام تأسو جراحنا . ألم نعتد أن نرضخ لحكم الأقدار ، ونرضى بظلمها مهما اشتطت وقست .

وبعد مضي عام وجد أبي مناسبة اقترح فيها زواجي من ابنة أخيه . إذ كان عمي قد مات عن ابنة وحيدة عاشت في كنف أبي ، وهو يرى في ابنة

أخيه فتاة كاملة تصلح لي زوجة مثالية . ويكون بذلك قد ضم ثروته إلى ثروة أخيه الطائلة .

أما أنا فلم أشعر نحو هذا الزواج بأي عاطفة ، بل تقبلته كشيء لا بد منه . فأنا لا أطمع أبداً أن أجد فتاة تروقني ، ويهفو إليها قلبي كابنة خالي إلهام . فذكراها ماثلة في مخيلتي دائماً وأبداً . وأخذت الأيام تمر رتيبة مليلة ، والألفة تقربني من زوجي بعض الشيء . وخاصة بعد أن ماتت أمي . فقد وجدت من حنانها وعطفها علي الشيء الكثير . فهي يشهد الله طيبة القلب ، حسنة الخلق ، حلوة المعشر .

إلى أن جاء يوم كانت تلك الخادم اللعينة التي أدعت أنها أرضعتني وإلهام ، ترتقي سلماً لتنظف إحدى النوافذ ، فيهوي بها السلم وتقع على الأرض فتنكسر يمينها . وكنت أقف بالقرب منها ، فأسرع لإسعافها رغم بغضي الشديد لها ، فإذا الألم البالغ يخرجها عن طورها فتعترف لي قائلة :

لقد انتقم الله مني يا سيدي فكسرت يميني . لأنني حلفت يميناً كاذبة فحرمتكما من بعضكما . ولكن ما ذنبي أنا ؟ إنه أبوك الذي أغراني بالنقود ، فأوقعني في هذا الإثم ليزوجك من ابنة أخيه ...

لايمكنني يا صديقي أن أصف لك شعوري نحو أبي عند ذاك . لقد شعرت بالخزي والعار من فعلته الشنعاء . وحقدت عليه حقداً بليغاً . وكرهت العيش معه ففكرت بالانتحار . ولكنني آثرت هذا الموت البطيء فلجأت إلى الخمر أعب منها كما رأيتني بلا روية ، فهي وحدها التي تستطيع أن ترفه عني . واندفعت في طريق الغواية بلا هوادة حتى انتهيت إلى ما تراني عليه الآن . وكلما رأيت علائم الكدر بادية على وجه أبي شعرت بلذة **الانتقام** والتشفي . وسوف لاأجعله ينعم برؤية النسل الصالح أبداً .

أرأيت يا صديقي كيف مسني الضر من حيث رجوت الخير والبر .

وكان صديقي منير بارعاً في تحويل الأحاديث فما وجدتني إلا وأنا أخوض معه في أحاديث شتى لاتمت إلى قصته المؤلمة بصلة .

ولما حان موعد انصرافي ، ودعته بحرارة . وكأني شعرت أنه الوداع الأخير وابتسم صديقي ابتسامة ساخرة عندما رأى الدموع حيارى في مقلتي .

كتاب مساوئ الخلق

كان سيء الخلق

كان الهدوء يشمل الغرفة الأنيقة ذات الأرائك المغلفة بالسجاد العجمي الفاخر وقد اتكأ على إحداها سليم بك ملتفاً بردائه الفضفاض ، يدخن لاهياًوهو يقرأ في مجلة مصورة ، فإذا سئم القراءة أزاح نظارتيه عن عينيه ونظر يميناً من النافذة العريضة ليسرح بصره بعيداً بعيداً في مشهد لا تمله العين ، ولا تزهد فيه النفس ، حيث دمشق قد انبسطت وادعة بمآذنها الرشيقة ، وقبابها الضخمة ، وقد أحاطت بها أشجار خلف أشجار ، وفي أفقها البعيد لاحت جبال زرق محدودبات كالتلال .

فإذا اكفهر الجو كما كان في ذلك اليوم بدت الجبال في الأفق البعيد كقطع غيم كبيرة دكناء ، هبطت من السماء فاتصلت بالأرض .

وقد جلست زوج سليم بك على الأريكة المقابلة جادة في حياكة ثوب صغير من الصوف تقدمه هدية لحفيدتها في عيد ميلادها .

وبينما سليم بك يقلب المجلة إذ وقع نظره على صورة امرأة جميلة وضعت للإعلان عن عطر جديد فاخر . وكانت الصورة تشبه زوجه في صباها كل الشبه فأزاح نظارتيه عن عينيه وتأمل زوجه ملياً ثم قال بنغمة ممطوطة :

الله ! الله ! يا زمن !...

فرفعت رأسها ونظرت إليه مستفهمة . فقال لها :

لشد ما غيرتك الأيام ! كنت في صباك كهذه تماماً . وأراها الصورة .

فتناولتها من يده وتفرّست فيها ملياً ثم قالت :

ومن لم تغيره الأيام ؟ ألم تغيرك أنت ؟ كم أود لو آتيك بمرآة لأريك وجهك كم يبدو رائعاً تحت طاقية الصوف التي تدلت حتى شحمتي أذنيك .

فأجابها وقد لاحت على فمه ابتسامة ساخرة :

ولكن ليس هناك ما يؤسف عليه . لأنني ماكنت جميلاً في يوم من الأيام ، أما أنت ... فمن كان يصدق أن شعرك الفاحم سيغدو هكذا ناصع البياض ، وأن بشرتك الناعمة الموردة ستصبح يوماً ما كامدة مجعدة ؟.

فصمتت برهة ثم قالت :

ولكنني لاأنكر على الأيام التي نالت من جمالي ، أنها حسنت خلقك كثيراً . لكم كنت **في شبابك سيء الخلق** . ولكم تساءلت كيف استطعت احتمالك . فما كنت والله لتحتمل .

فأجابها على الفور :

ولكنك لاتنكرين أن شيخوختنا سلام ووئام . فمن يدري ؟ لعله كان بين جمالك وسوء خلقي علاقة ... والدليل على ذلك أنهما ذهبا ببعضهما .

قالت : تعساً لها من علاقة ! أهذا كل ما جنيته من جمالي ؟ وها هو ذا قد ولّى كأن لم يكن !!.

وكأنه أراد أن يرفه عنها قليلاً فقال لها :

ولكنني لن أنساه . فما زلت أذكر كما ترين شعرك الفاحم ، وبشرتك الموردة .

قالت : وأنا كذلك ما زلت أذكر تصرفك السيء معي فصلاً فصلاً . وإن أنس لاأنس يوم حرمتني من عرس ابن عمي . أتذكـر تلك الليلـة اللعينة ؟!.

قال : وكيف لاأذكرها ؟ ليلة ارتديت ذلك الثوب الأزرق الذي يكشف عن ذراعيك ، وصدرك البراق ، ونصف ظهرك المصقول . لقد بدوت فيه والله ليلتئذ كحوريات الجنان .

قالت : ومع ذلك لم تشفق على حورية الجنة ! بل تركتها تبكي طوال الليل . كنت حينما ظهرت أمامك بالثوب الرائع حسبتك ستؤخذ بجمالي ، فإذا وجهك يكفهر . وإذا أنت تقول لي بحدة :

أنا لاأسمح أبداً أن تظهري في الحفلة هكذا كنصف عارية . ولما أصررت على الذهاب هجمت علي وأخذت تمزق الثوب وهو على جسمي إرباً إرباً . حتى جعلته كومة على الأرض . وأنا أكاد أجن ، وأنت لا ترحم جزعي . لله ما كان أقساك .

قال : لقد مضى على هذا الحادث ثلاثون عاماً . ووالله العظيم لو أحصيت عدد المرات التي ذكرته فيها لأربت على المئات . ولو عرفت السبب لعذرتني .

قالت : ومن كان يمنعك من ذكر هذا السبب الخطير ؟؟

قال : كانت تمنعني كبرياء الشباب ، كنت أربأ بنفسي أن أظهر أمامك بمظهر المدله الغيور . وها هي ذي الأيام تذهب بالشباب وبكبريائه فيما ذهبت ، ولذا تجدينني أبوح لك بالسبب غير مبال :

لقد كنت أدرك إعجابك بابن عمك ، وافتتانه بك ، وكم كنت تتأنقين أمامه ولاحظت أنك بدأت تستعدين لحفلة العرس قبل موعدها بكثير . وأظنك قد بذلت حينئذ من الجهد في سبيل تجميل نفسك أكثر مما بذلت العروس نفسها . لتفوزي عليها وتحتفظي بمكانتك في قلب ابن عمك .

وما كنت من البلاهة لأدعك تحققين مأربك . ألم أكن على حق في تمزيق الثوب الذي دفعت ثمنه باهظاً ؟؟

أجابته بحماسة :

أعوذ بالله منك ! من أين لك هذه الفكرة الخاطئة ؟!

وكيف سمحت لنفسك أن تفكر فيها ؟؟

لقد كنت والله واهماً . وكم عكَّرت أوهامك حياتنا !!

وقالت في نفسها :

ياله من ذكي قارح ! وكم أتعبني ذكاؤه ودهاؤه .. لعله كان يدرك ما يجول في خاطري قبل أن أدركه أنا .

ثم عاد فقال لها :

مهما غيرت الأيام يا عزيزتي من شكل المرأة فهي لا تقوى أبداً على تغيير طباعها فهيهات أن تعترف بالواقع . أو أن تبوح بأسرار قلبها ولو بعد حين .

وكأنما أرادت تغيير مجرى الحديث فيما يختص بابن عمها فقالت له :

ها أنت ذا قد وجدت مبرراً لتصرفك يومئذ . ولكن هناك مواقف كثيرة لا دخل لابن عمي فيها فما عذرك عنها ؟

قال : أذكري لي واحداً منها .

قالت : لقد نسيتها .

قال : أنت تنسين ؟ أعوذ بالله . إن لك لذاكرة عجيبة تحفظ الشر وتنسى الخير !.

قالت : الخير ؟؟.. وهل هناك خير لأذكره ؟

ثم أردفت قائلة : ها أنا ذي قد تذكرت واحداً منها :

يوم أمَّ دمشق لأول مرة ذلك المغني المصري الشهير ، وأخذ الناس يتهافتون على سماعه . وذهبت أنت مع الذاهبين . ولما عدت من الحفلة كنت تلهج معجباً بصوته الجميل . ثم قدمت لي تذكرة من تذاكر الصفوف الأمامية لأحضر في الغد الحفلة التي سيحييها للسيدات . وكم أفرحتني لفتتك الرقيقة يومئذ . ولما حان موعد الحفلة عدت إلي تقول :

إن خالتك مريضة ، من الخير أن أدع الحفلة وأذهب معك لعيادتها . ولما أبيت عليك ذلك ، احتدمت غيظاً ، وتناولت التذكرة فمزقتها إرباً إرباً ، وصفقت الباب وذهبت وتركتني وحدي أندب سوء حظي . لكم كنت أخشاك . لماذا لم أشتر تذكرة غيرها ولمَ لم أذهب على الرغم منك لأرى ماذا كنت تصنع ؟ يا لي من غبية بليدة !.

فأجبتها هازئاً :

وهل تجدينني أيضاً مسؤولاً عن غباوتك وبلادتك ؟

وأذكر أنه كان لتصرفي آنئذ مبرر أيضاً . فما كدت أقدم إليك التذكرة حتى بان الفرح على وجهك ، ثم قمت إلى المرآة فحللت شعرك ، ثم بللته ، ثم فرقته خصلاً ، ثم أتيت بخرق بالية لم أدر من أين لممتها ثم أخذت تكورين كل خصلة وحدها ، وتربطينها بالخرقة ، حتى إذا فككتها بالغد أصبح شعرك مجعداً . فصار رأسك عجيب الشكل . وجلست أمامي طول السهرة تؤذين بصري بمنظرك البشع . فسكت على مضض . ولما كان الغد وعدت من عملي . كانت الخرق ما زالت على رأسك ، فأنت لا تفكينها إلا قبل موعد الحفلة بدقائق . وزيادة على ذلك طليت وجهك بمعجون أصفر كريه الرائحة من خصائصه أن يضفي على البشرة رونقاً عند إزالته .

فتساءلت في نفسي : أذاهبة هي لتسمع الغناء وتطرب له ، أم لتظهر جمالها ؟.

وتذكرت أنك مدحت مرة أمامي شكل المغني المصري ، وشعره الكثيف . وفوديه الطويلين اللذين يقلد بهما فناني الغرب . وفطنت أيضاً أنك كنت حريصة على جمع أسطواناته وخاصة ما ندر منها مهما غلا ثمنه ، فوسوس لي الشيطان وكان مني ما كان .

فقالت في نفسها :

أما الآن فقد أخطأ التقدير فوالله ما شغلت بالمغني أبداً . وما تأنقت إلا لأني نويت أن أنصرف من الحفلة باكراً فأزور ابن عمي . ولكنها قالت له :

أعطيك كل الحق لغيرتك منه ، فأنا أهوى الأصوات الجميلة وصوتك أجش منكر ، وأعجب بالشعر الكثيف ، وأنت أصلع من يوم عرفتك .

قال ضاحكاً :

من يوم عرفتني ؟ أنا والله نسيت متى بدأت أفقد شعري ..

قالت له بسخرية لاذعة :

أغلب ظني أنك ولدت أصلع!.. وعشت أصلع !.. وستموت أصلع !.

فأجابها : أنت اليوم لاتكفين عن سخريتك مني . ولكني أتقبل منك كل شيء ما دمت قد أعطيتني الحق ولو مرة واحدة في العمر . واعترفت لي ببعض ما يجول في نفسك . ولكن وقد مضى ما مضى . دعيني أسألك بالله وقد عهدتك رفيعة الذوق . ما الذي أعجبك بهذا المغني السمج البارد الذي لولا صوته لا يساوي شيئاً ؟

قالت : إنه والله كما تقول تماماً ، وأنا نفسي غيرت رأيي فيه لا سيما عندما رأيته يمثل رواية سينمائية .

ثم قال لها وقد تملكه زهو واعتزاز :

أرأيت يا عزيزتي أن مكر النساء الذي يجوز على غيري من الرجال ما كان ليجوز علي أبداً ...

فأجابته وقد جهدت في إخفاء ابتسامة طفرت على شفتيها :

طبعاً ... وكيف يجوز على من كان في مثل ذكائك ودهائك ؟؟

إن الزوج الذي يكون على شاكلتك تكون زوجه دائماً عاثرة الحظ .

قال متأففاً :

قد تنتهي الحياة ولا تنتهين أنت من ندب حظك !

وقال في نفسه :

إنها والله طيبة . لا تشبه غيرها من النساء . وقد ظلمتها باتهامها بابن عمها . وها هي ذي قد اعترفت لي صراحة عن إعجابها بالفنان المصري ثم عن تغيير رأيها فيه .

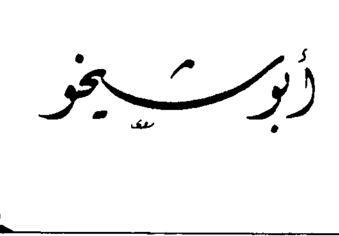
ثم عاد فتناول المجلة ، ووقع بصره مرة ثانية على عنوان العطر فقال :

تباً لهذه الصورة لقد نبشت بيننا ما كان مدفوناً ! ثم أشعل لفافة ، ونظر من النافذة العريضة فسرح بصره بعيداً بعيداً في المدينة الخالدة التي تحوطها اشجار خلف أشجار ، وفي أفقها البعيد تلوح جبال زرق محدودبات كالتلال .

وعادت هي إلى حياكتها . ولما انحنت لتتناول كبة الصوف من على

الطاولة الصغيرة التي أمامها ، بدا وجهها على صفحتها المعدنية المصقولة كامداً مجعداً فتمتمت بلوعة :

يا ليتني ظللت كما كنت جميلة فاتنة ، ولو أنه ظل كما كان سيء الخلق ...


أبو شيخو

أبــو شــيخو

في قريـة صغـيرة قائمة على سفح جبـل الشيخ ، يغمرها الثـلج طول الشتاء ، ويتوج قمم جبالها مدى الصيف ، كان يقيم أبو شيخو الرجل المعمر الذي لا يستطيع أحد أن يقدر عمره ولو على وجه التقريب ، أما هو فيؤكد لصحابه أنه اشترك في حرب الموسكوف إلى جانب الجيش العثماني ، ويروي الأعاجيب عن بطولته وبلائه في تلك الحرب .

وأبو شيخو في قريته مضرب المثل بقوة الإيمان ، والصبر على المكاره ، فلم تستطع المصائب التي توالت عليه أن تهد من كيانه ، أو تنال من بأسه . وهو يعيش في بيته بمفرده ، فقد أضرب عن الزواج منذ عشرين سنة عندما توفيت زوجه الثـالثـة في ريعان الصبا . ثم أخذ الموت يختطف أولاده الكثر الواحد تلو الآخر ، ولم يبق له سوى ابنة واحدة هاجرت مع زوجها إلى الديار الأمريكية . ويتحدث سكان القرية بشيء من الإعجاب والحسد عن النجاح الباهر الذي أصابه زوجها هنالك . وهي ترسل لأبيها من حين لآخر شيئاً من المال يقيه شر العوز ، ويعفيه من العمل المضني في شيخوخته المرهقة . وقد اتخذ فلاحو القرية من دار أبي شيخو الفسيحة ندوة قلما تخلو من السمار .

وأبو شيخو أميل إلى الصمت منه إلى الكلام ، يجيد الإصغاء كما يجيد الحديث . ولكنه إذا تحدث ، تحدث بروية وأناة ، عن كل غريب عجيب حتى يأسر مستمعيه ويملك عليهم حواسهم فلا يحيدون عنه طرفة عين .

وفي أمسية من أماسي الربيع المقمرة ، جاء مختار القرية إلى ندوة أبي

شيخو ومعه رجل غريب ، تعطلت به سيارته فلجأ إلى دار المختار يمضي ليلته تلك ، وأراد المختار أن يرفه عنه فأتى به إلى الندوة ، حيث هي خير ما في القرية .

ولعل أبا شيخو أراد أيضاً أن يرفه عن ضيفه الغريب بقصة طريفة فقال بعد أن أومأ إلى إحدى الصبايا أن تدير فناجين للقهوة :

سأروي لكم الليلة حادثاً لم أر له مثيلاً في حياتي . وأنتم تعلمون أن حياتي حافلة بأشكال وألوان من الحوادث ، فيها المفرح والمحزن ، والمخيف والمضحك فلشد ما رأيت وسمعت وجربت في حلي وترحالي . ولكنني لم أشاهد ، ولم أسمع حادثاً كالذي مر بي البارحة في قريتنا .

في قريتنا هذه ؟؟ تمتم الفلاحون دهشين . ومن أين لقريتهم بالحوادث العجيبة والحياة تسير فيها من أمد بعيد على وتيرة واحدة لا تغيير ولا تبديل .

نعم . قال أبو شيخو وفي صوته كثير من الحزم والتأكيد . كان ذلك البارحة بعد صلاة العشاء ، وتذكرون أن عاصفة شديدة هبت في ذلك الحين ، فآثرت الصلاة في داري ثم أخذت أصطلي ، وأسبح الله في هدوء واطمئنان . فإذا أنا أسمع صوتاً يستغيث بي وكأنه صادر من بئر عميقة :

أبا شيخو ! أبا شيخو ! إليَّ ... إليَّ ...

فظننتني بادئ ذي بدء واهماً ، وأن الصوت الذي أسمعه ما هو إلا عواء بنات آوى ، أو عويل الرياح قد شبه لي . ولكن النداء عاد مرة ثانية ، وإن لم يكن واضحاً تماماً فهو صوت بشري ما من شك في ذلك ولا شبهة . وها هو ذا يناديني أنا وحدي ، فلا يوجد غير بيتي في تلك الناحية . وتملكتني حيرة شديدة لأنني لم أستطع أن أعين جهة الصوت ، فكل مرة كان يأتيني من جهة . إذا وليت وجهي نحو الموقد سمعته في زفير النار .

وإذا أصخت سمعي نحو النـافذة تنـاهى إليّ في هدير المياه ، وزمجرة الرياح ، وعويل العاصفة .

أبا شيخو ! أبا شيخو . إلّي ... إلّي ...

فأقشعر جسمي ، وأخذ قلبي يضرب بقوة وعنف . وكأن قوة خفية أهابت بي أن قم ... إلى متى التردد ؟ أين مروءتك ورجولتك ؟ هل ذهبت بهما الشيخوخة ؟ قلت : معاذ الله أن يذهب بهما شيء وبي رمق . وأخذت هراوتي ، والتففت بعباءتي ، ولما فتحت الباب واجهني بحر من الظلمات ، وصفعتني ريح باردة ، وأخذ يضرب وجهي رذاذ من المطر . ولكني سرت كالسهم .. وكأن قوة خفية تدفعني إلى جهة معينة . وفي مثل لمح البصر وجدتني عند تل العنيزات الذي يبعد عن بيتي كثيراً كما تعلمون ، وتفصلني عنه طريق وعرة . لا أدري والله كيف قطعتها . وهناك سمعت الصوت جلياً واضحاً صادراً عن أعلى التل .

أبا شيخو إلي إلي ... فقلت : لبيك ... ها أناذا قد أتيت ...

وارتقيت التل بسرعة عجيبة لم أعهدها بنفسي منذ كنت شاباً . كأن في رجلي عجلتين . وكانت عيناي قد اعتادتا العتمة فرأيت على ضوء النجوم شيئاً أسود ينسل وينحدر من الجهة المواجهة لي ولم ألبث أن عرفت أنه ضبع من صوت مخالبه التي كانت تحتك بالأرض أثناء سيره فتحدث صوتاً معروفاً لدي . والتفت يميناً فإذا كومة سوداء ، تفرست فيها فرأيت رجلاً مبهور الأنفاس ، قد عقد الخوف لسانه ، فلم أكثر عليه بل أخذت بيده ، فسار معي ، وكم كانت الطريق بعيدة ووعرة . فلما دخلنا بيتي أجلسته قرب الموقد ، وسقيته فنجاناً من القهوة حتى سري عنه ، وعاد إليه وعيه . فأخذ يقبل يدي ، ورجلي ويقول لي :

لقد أرسلك الله لإنقاذي . أوليّ أنت من أوليائه ، أم ملك كريم ؟...

قلت دهشاً :

بل رجل مثلك استغثت بي فأغثتك .

فاستغرب ذلك وقال :

أنا لم أستغث بأحد ، ولا أعرفك ...

فوقعت في حيرة ، ثم سألته :

من أنت ؟ وكيف حصل لك ذلك ؟ قال :

أنا رجل من الأكراد ، كنت أجد السير لكي أبلغ القرية المجاورة قبل أن يهبط الليل . ولكن العاصفة والمطر أعاقا مسيري فداهمتني الظلمة ، وبينما كنت أسير إذا شيء يدفعني من الخلف فأقع على الأرض ، وما كدت أقف وأسير بضع خطوات حتى عاد الشيء ودفعني مرة ثانية وثالثة وهكذا دواليك عدة مرات ... ولما تنبهت لأمري تبينت وحشاً يدفعني ثم يختفي في الظلمة ، ولم ألبث أن ذهلت واستولى عليّ الخوف والاضطراب فأخذت أتبع الوحش على غير هدى حتى ارتقينا التل . فلما صرنا في أعلاه أبصرت ضوءك من بعيد ، وكأنما الضوء قد نبهني من ذهولي ، فتوقفت عن السير وجلست على الأرض . فأقعى الوحش أمامي ، وأخذ يتثاءب فتخرج من فمه رائحة كريهة تخدر أعصابي فلا أستطيع حراكاً .

وعندها خطرت لي قصة كان والدي يرددها أمامنا كثيراً كان يسير مرة في ضوء القمر ، فرأى عن بعد وحشاً يرتقي جبلاً يتبعه رجل مضطرب السير . فعرف أن الرجل مضبوع[1] . فأخذ يغذ السير حتى أدركه وأنقذه من

(١) المضبوع : الشخص الذي يتبع الضبع . حيث يعتقد الفلاحون في أرياف سورية أن الضبع إذا داهم شخصاً في الليل بمفرده ، يأتيه من الخلف ويدفعه حتى يقع على الأرض .

الوحش الماكر . ولا أدري لماذا ناديت أبي عندما خطرت لي هذه القصة . ناديته باسمه عدة مرات فإذا أنت ترد عليّ النداء ...

قلت : وما اسم أبيك .

قال : اسم **أبي شيخو** ...

فلم أملك أيها الأخوان ألا أن سجدت للواحد القهار وقلت للشاب : أنا الرجل الذي أنقذني أبوك ... وقد كنيت نفسي باسمه لكي أذكر دائماً أبداً اسم من أنقذني من ميتة شنيعة . فنظر إليّ الشاب مأخوذاً . ثم مد يده إلى جيبه فأخرج علبة تبغ صغيرة . وقال لي أتعرف هذه ؟

قلت : وكيف لا أعرفها ؟؟ إنها والله علبتي وقد أهديتها لأبيك اعترافاً بجميله ، ولم أكن يومئذ أملك غيرها .

قال الشاب : وأنا أيضاً لاأملك غيرها الآن !! فدعني أعيدها إليك كذكرى لهذا الحادث العجيب .

وأخرج أبو شيخو من جيبه علبة صغيرة من معدن لماع تناولها الفلاحون من يده وأخذوا يقلبونها بأيديهم . وسرت في الجمع همهمة ، هذا يوحد ألله ، وذاك يسبحه . ثم قالت زوجة المختار :

أظن أن بنات الجن كن ينادينك لتنقذ الفتى .

فرد عليها زوجها قائلاً :

يا لك من خرفة !... متى كانت بنات الجن يفعلن الخير ؟ قولي ملائكة الرحمن فضحك الجميع . ولكن أبا شيخو هز رأسه وقال جاداً :

← فإذا استوى قائماً وعاود سيره عاد إليه ودفعه مرة ثانية وثالثة وهكذاحتى يصاب الشخص بالذهول فيتبع الضبع على غير وعي منه إلى كهفه حيث يفترسه هناك بهدوء واطمئنان .

والله لا بنات الجن ولا ملائكة الرحمن ،إنها روح شيخو فاعل الخير ، وصـاحب المروءة كانت تهيب بي وتناديني : أن قم أيها الرجل أنقذ ابني كما أنقذتك ...

قال قائل منهم :

افعل الخير وارمه بالبحر . وأتمَّ آخر : إن لم يثمر مع الناس أثمر مع الله .

أما الرجل الغريب فكان يصغي إلى حديث أبي شيخو مأخوذاً بجاذبه ويقول في نفسه :

أمن صميم الواقع هذه القصة أم من نسج الخيال ؟؟ ومهما يكن الأمر فأبو شيخو محدث بارع ، وذو خيال واسع ، وذكي لامع . ولكن يا للخسارة لقد ولد في الفقر حيث تثبط الهمم وتدفن المواهب !!!

ثوب سلمان

ثـــوب ســـلمـان

كانت سعـاد تطـالع بإعجـاب وإمعـان الرواية الأخيرة التي ألفهـا زوجهـا ، والتي حازت نجاحاً باهراً رفع مؤلفها الأديب الناشئ سـامي إلى مصاف الأدباء الكبار .

ولفت نظر سعاد بصورة خاصة الوصف الرائع الدقيق الذي وصف به المؤلف بطلة روايته . حتى إن وصف ثوب السهرة الذي كانت ترتديه عندما فاتحها عشيقها بالحب أول مرة استغرق صفحة كاملة . فهو لم يغفل ذكر لونه السماوي ، وثنيـاته الكثـيرة من الأمام التي جعـلته فضفاضـاً فخماً ، وزناره العريض المعقود بلباقة تظهر جمال خصرها الممشوق ، وأكمامه المنتفخة المنحدرة قليـلاً عن منكبيهـا الجميـلين ، والوردة الحمراء التي تزين الصـدر . من أين لسـامي أن يجيد هذا الوصف ؟ وعهدها به لايحفل بالأزياء مطلقاً ، ويرمي بالسخف كل من تتبع تقلباتها المستمرة . هي لاتنكر عليه أنه أديب سلس مطواع ، دقيق المـلاحظـة ، سهل التعبير . ولكم قرأت له يصف خلجات النفس ، ودقائق الشعور . أما أن يصف ثوباً نسائياً بهذه الدقة ، فهذا مما لاتصدقه أبداً .

وقالت في نفسها :

لابد أن سامي أعجب بفتاة كانت ترتدي ثوباً من هذا الطراز فترك الثوب في نفســه انطباعاً ظهر أثره جلياً في وصفه الدقيق . وأخذت تنتابها شكوك وظنون . ترى من هي تلك الفتاة ؟ وأين تعرف بها سامي ؟ وهل هي

التي أوحت إليه هذه الرواية العظيمة ؟؟ من يدري ؟ ربما ألفها خصيصاً من أجلها !...

ثم أخذت تحملق في صورة البطلة المرسومة على غلاف الرواية وكان قد وضعها رسام مبدع ، وألبسها الثوب الموصوف بالرواية فجاءت مطابقة للوصف تماماً . وفجأة خطر لسعاد أن تصنع ثوباً من هذا الطراز ، وسوف تستنتج من تعليقات سامي عليه أشياء وأشياء ، ولكن هذا يكلفها كثيراً . وليس لديها المال الكافي ! وأخيراً قر عزمها على بيع خاتمها الماسي وسيغفر لها سامي تصرفها عندما يراها تخطر كبطلته تماماً رائعة وهي لابسة ثوبها الجديد .

بينما كانت سعاد تفكر في إعداد مفاجأتها إذ جاء زوجها ومعه ضيف عزيز على الأسرة هو شقيقه سلمان الموظف في قرية نائية عن دمشق . جاء يهنئ أخاه بالنجاح الباهر الذي أحرزه في روايته الأخيرة .

وكان سلمان ظريفاً حاضر النكتة ، أخرج من حقيبته الصغيرة فور وصوله ثوباً للنوم . لونه سماوي فاتح . وقال لامرأة أخيه :

سأترك هذا الثوب عندك لأرتديه عند النوم كلما جئتك زائراً . فلا أستعير بعد الآن منامة أخي سامي الضيقة فأثير ضحككما كلما ارتديتها . ثم التفت إلى سامي وقال له :

لقد أصبحت أمنا يا سامي عجوزاً لا تحسن عملاً . لقد طلبت منها أن تشتري لي قماشاً أخيطه ثوباً للنوم . فانظر لهذا اللون الذي اختارته ، ولتفصيل هذا الثوب وخياطته ، لقد أسرفت في الطول والعرض حتى نفد القماش فجاءت الأكمام قصيرة ! كلما ارتديته حسبتني عريساً من الريف .

قالت سعاد ساخرة :

هذا الثوب لا ينقصه إلا رقم حتى يصبح كثياب السجناء تماماً .

فرد عليها سامي قائلاً :

دعينا من السجن والسجناء . واتركي سلمان يلبس ثوب نومه متشبهاً بعريس ولو كان من الريف !...

وأغرق ثلاثتهم في الضحك ، ثم انصرفوا بعد ذلك للتحدث عن الرواية وعما كتبه عنها النقاد في الصحف والمجلات .

وفي اليوم الثاني كانت سعاد تحمل في محفظتها ثمن خاتمها الماسي الذي بخسها إياه الصائغ ، وتجوب الأسواق لتنتقي قطعة ثمينة من الحرير السماوي الممتاز . وأخيراً وفقت لطلبها وذهبت تواً لعند خياطة شهيرة ، ولم تنس أن تأخذ معها الرواية ثم طلبت من الخياطة أن تخيط لها ثوباً على شكل الصورة المرسومة على الغلاف .

وبعد أسبوع كانت تخطر أمام مرآتها مزهوة بثوبها الجديد ، وقد أتقنت تقليد بطلة الرواية في تصفيف شعرها أيضاً . وأخذت تنتظر قدوم زوجها بصبر فارغ . وجاء بعد قليل ، فحيته مبتسمة فرد تحيتها دون أن يعير ثوبها أقل التفات . وأسرع إلى مكتبه فأخرج كتاباً وانهمك في قراءته .

ثم أخذت سعاد تكثر من التحدث إليه ، وتخطر متمايلة أمامه لتلفت نظره إلى ثوبها الجديد . ولكنه قال لها دون أن يحول عينيه عن الكتاب .

أرجوك أن تسكتي . وتدعيني وشأني ولو قليلاً . لأني أريد أن أفرغ اليوم من قراءة هذا الكتاب لأكتب عنه نقداً أقدمه غداً للنشر .

فظهر الغيظ والحنق على وجه سعاد وتساءلت في نفسها :

هل آلمه أن أقلد بطلة روايته فتجاهلني ؟؟

ثم خلعت ثوبها بعصبية ، ورمته غير عابئة به . وجلست صامتة تفكر . وقد اعتمدت رأسها بين يديها كمن أصيب بصداع .

وبعد ساعة رفع سامي رأسه وسألها قائلاً :
مابك يا سعاد ؟ هل تشكين شيئاً ؟

قالت بحدة :
نعم أشكو بلادتك !...

بـلادتي ؟ أجاب مستغرباً . وماذا رأيت منهـا ... أراك قد أصبحت سليطة اللسان !

ماذا رأيت منها ؟ قالتها سعاد متهكمة . ثم أردفت : ألم تر ماذا كنت أرتدي منذ هنيهة ؟

ـــ منذ هنيهة ؟ وأخذ يفكر وهو يعبث بجبهته ثم قال :
منذ هنيهـة كنت ترتدين ثوب أخي سـلمان . ولا أدري أي سبب سخيف حملك على ذلك !

ثوب أخيك سـلمـان ؟!... صـاحـت سعاد بأعلى صوتها . أهكذا رأيت ؟ ثم أغرقت في الضحك بعد أن أيقنت أن ليس هناك امرأة تغار منها ، ولا ثوب ترك انطباعاً في ذاكرة زوجها ، وثبت لها أن الأديب في خياله أروع منه في حقيقته . وأسفت أشد الأسف على جهودها الضـائعة ، وعلى ثوبها الأنيق الذي مسخ في عيني زوجهـا الأديب الشرود ، حتى ظنه **ثوب أخيه سلمان** .

الكأسات المعدودات

الكاسـات المعـدودات

كلما انتهت أم شكر من صلاتها رفعت يديها إلى السماء وابتهلت إلى الله تدعوه من قلب كسير وكبد محروقة . لم تكن لتسأله العفو والعافية وحسن الختام ، ولا أن يرزقها المال والبنين ويرد عنها كيد الحاسدين . بل كانت تضرع إليه دائماً أبداً أن يمحو **كاسات أبي شكر من لوحه المحفوظ** ...

وأبو شكر هذا زوجهـا وهو تاجر من تجار دمشق قد منَّ الله عليـه باليسر والكسب الحلال . وهو شهم طيب القلب ، يتقرب إلى ربه بالحسنات فيطعـم الطعـام على حبه يتيماً ومسكيناً مما أكسبه مكانة مرموقة بين جيرانه وزملائه التجار . لم يتجاوز الخامسة والأربعين من عمره . تنم عيناه الصغيرتان عن ذكاء ونزق ، كثير الحركة ، كثير الكلام . يرتدي زياً شائعاً بين أكثر تجار دمشق . وهو يشبـه الزي الفرنجي كل الشبـه ، إلا أن السـروال أعرض من المعتاد ، والسـترة أطول من المألوف . ويلبس على رأسـه طربوشاً كور عليه عمامة من نسيج الأغباني الذي خصت به مدينة دمشق .

وتتألف أسرة أبي شكر من زوجه وبناته الثلاث . وهو لم يرزق ولداً ذكراً بل سماه أصدقاؤه أبا شكر تيمناً عسى الله أن يمن عليه بولد ذكر يسميه (شكر) .

وتعيش الأسرة بخفض ورغد لا يعكر صفاءها إلا شيء واحد هو ما ابتلي به ربها من حب الخمرة !. فهو لا يطيق عنها صبراً ، حتى لتصرفه عن زوجه وبيته . وهو يعاقرها كل يوم مع ندمانه طول الليل ؛ حتى إذا كاد الفجر

ينبلج عاد إلى بيته ثملاً يترنح . مما جعل زوجه في غيرة دائمة لانصرافه عنها ، وقلق مستمر على مصيره السيء . ولا سيا عندما تراه يزداد مع الأيام تمادياً في غيه ، وإمعاناً في غوايته .

وتسكن الأسرة داراً فخمة في حارة من حواري دمشق القديمة ، وقد يتملكك العجب إذا ما مررت بالزقاق الضيق الذي تنبعث منه روائح العفن والرطوبة ، ثم رأيت باب الدار المتواضع ، فإذا سرت بالدهليز المظلم بضع خطوات واجهك باب آخر عريض ، فإذا ما ولجته طالعتك دار مشرقة . وإنه ليدهشك فناؤها الفسيح الذي هو على طراز تلك الدور الشامية القديمة قد رصفت أرضه بالرخام الأبيض . تتوسطه بحرة ذات نافورة يندفع منها الماء بقوة فيحدث هديراً متتابعاً قد ألفته أسماع أهل الدار حتى ليشعروا بالوحشة إذا انقطع الماء وسكن الهدير ، وقد زينت بأصص كثيرة غرست فيها الأزاهير والنباتات المتسلقة التي مددت أغصانها على الجدران ونوافذ المخادع حتى كستها جميعها بأغصانها اللينة . وأوراقها اللامعة . وفي الزوايا أشجار وارفة من النارنج والليمون حتى بدت الدار كخميلة كثيفة . وفي صدرها إيوان ذو قوس عال يصعد إليه بثلاث درجات من مرمر ، فرشت أرضه بالطنافس العجمية ، وصفت حواليه الأرائك عليها الحشايا والمساند .

وربة البيت السيدة أم شكر من هؤلاء النساءالوديعات اللواتي يقنعن من حياتهن بمملكة البيت ، لم يتبلبلن بين المدنيتين الشرقية والغربية ، فأضعن هذه ، ولم يحسن تلك . قد أنشأت بناتها على طرازها ، فلما أتممن دراستهن الابتدائية أخرجتهن من المدرسة ووقرن في البيت يتدربن على تدبيره فلا يخرجن منه إلا بإذن من والدهن . وأخشى ما يخشاه أبو شكر على بناته هو مفاسد المدنية الحديثة .

وأم شكر ذات يد صناع ، قد علمت بناتها الخياطة والتطريز ، فطرزن معها أغطية الموائد ، وأغشية المساند ، وأطراف الستائر بألوان زاهية ، ورسوم شرقية بديعة حتى بدت الدار ببنائها وأثاثها ذات طابع شرقي أنيق .

ولشهر رمضان شهر الخيرات والبركات حرمة وكرامة عند أسرة أبي شكر شأن كل الأسر الدمشقية المتمسكة بأصول الدين ، وما يتبعه من عادات وتقاليد . مما يجعل الأسرة تستعد لمقدم الشهر المبارك قبل حلوله بأسابيع . فيرسل أبو شكر المؤن ببحبوحة ، وتنشط زوجه مع بناتها فينظفن الدار من السقيفة حتى القبو .

ولعل أكثر ما يحبب رمضان إلى أم شكر هو تلك التوبة التي يتوبها زوجها فيقلع عن شرب الخمرة فلا تمس شفتيه طوال الشهر الفضيل .

فإذا أطلقت المدافع إحدى وعشرين طلقة إيذاناً بمقدم رمضان انقلب أبو شكر من ماجن مستهتر ، إلى تقي ورع . ومن نزق حاد الطبع ، إلى وديع دمث يؤدي الفرائض الخمس بأوقاتها ، ويقرأ القرآن ولا تفارق السبحة أصابعه يتلو عليها أدعية وأوراداً ، ويسأل الله أن يغفر له ما تقدم وما تأخر من ذنوبه .

وكم كان يروق له أن يجلس على الإيوان قبيل الإفطار يتلهى عن صيامه بمرآى زوجه وبناته . البنات رائحات غاديات بصحن الدار بألبستهن الزاهية ، يهيئن المائدة ، والزوجة تشرف على الطبخ بخفة ونشاط خوف أن يدركها الوقت ، وقد زينت رأسها بباقة من أزهار الياسمين ، ووضعت في صدرها أطواقاً من اللؤلؤ . وأبو شكر يخرج ساعته من جيبه وينظر إليها من حين لآخر فإذا لم يبق للإفطار إلّا دقائق ، قام فترأس المائدة الحافلة بأشكال وألوان من اللحوم والخضار والفاكهة والحلوى . ثم يتلو دعاءً خاصاً بصوت خفيض تنصت له

الأسرة بخشوع والعيون تلتهم الطعام ، والأنوف تتنسم عبيره الذكي . فإذا انطلق مدفع الإفطار سمى أبو شكر بالله ، ثم ابتدأ بالأكل وتبعته زوجه وبناته ، ولا يسمع عندئذ إلا قرقعة الملاعق تهوي إلى الصحون وترتد إلى الأفواه بسرعة عجيبة . فإذا انتهت معركة الطعام قامت أم شكر فوزعت ما تبقى لديها منه على الفقراءِ والمساكين الذين اعتادوا أن يطرقوا بابها كل يوم في مثل هذا الوقت فينالوا نصيبهم من لذيذ الطعام . وفي طليعتهم أبو حامد المسحر الذي يقرع الباب بعنف ، ويضربِ طبلته فيضج الحي من صوتها المنكر ، يجأر بصوت أجش : « كل سنة وأنتم سالمين » وأبو حامد المسحر رجل بغيض الشكل ، رث الثياب ، أشعث الشعر ، له عينان جاحظتان تنمان عن بله وغباوة ، يختفي طول العام فإذا أهل رمضان ظهر بشكله البغيض ، وثيابه الرثة وكأن له أتاوة على كل الناس .

فإذا أذن العشاء صلى أبو شكر العشاء والتراويح ، ثم جلس على الإيوان يستقبل زواره الكثر من أصدقائه وجيرانه ، يرشف معهم فناجين القهوة المرة ، ويدخن لفائف التبغ ، ثم يتبادلون النكات ، ويتناولون شتى الأحاديث حتى إذا سمعوا أبا حامد يضرب طبلته فيعكر ضجيجها سكون الليل . ثم يجأر بصوته الأجش :

(يا نايم وحد الله) قام الزوار فانصرفوا إلى دورهم . وتنشط أم شكر مرة ثانية لتهيئة طعام السحور ولما يمض على طعام الإفطار إلا ساعات قليلة ، فتوقظ بناتها وتعود الجلبة إلى الدار .

كل هذا وهي لا تشعر بتعب أو ملل ، بل يغمرها فيض من السعادة ، وتود لو أن كل الشهور رمضان . وتتساءل لماذا تمر أيامه سراعاً ؟! فتأسف على كل يوم مضى . وفي اليوم الأخير لا تفرح لمقدم العيد كما يفرح الناس جميعهم .

وكيف تفرح ؟ وما من شك أن أبا شكر سيستأنف سيرته الماضية منذ صباح العيد ، فينصرف عنها إلى كؤوسه وندمانه ، ويعود إليه نزقه وشراسته !.

وأم شكر تقية ورعة تؤمن بالقضاء والقدر فلا تحقد عليه ، تعتقد أن له **كاسات معدودات** قد كتبت عليه في لوح القدر لابد أن يستوفيها ....

ولكنها لا تيأس من رحمة الله ، فلما صلت صلاة الفجر بعد مدافع العيد أخذت تدعو الله وتبتهل إليه في تلك الليلة الفضيلة أن يمحو كاسات أبي شكر من لوحه المحفوظ ويهديه سواء السبيل .

ثم نامت تهدهدها أحلام عذاب .

وما كادت تغفو قليلاً حتى سمعت أبا شكر يناديها بصوت خفيض ، متهدج النبرات :

ـــ أم شكر ! أم شكر ! أنائمة أنت ؟

ـــ لا ... اسم الحفيظ عليك ماذا أصابك ؟؟

ـــ إني مضطرب جداً ... خائف ، كل أوصالي ترتعد .
لقد حلمت حلماً مزعجاً !

ـــ خير ببركة ألف صلاة على النبي . ماذا رأيت ؟
تفسيره على أبي بكر الصديق .

ـــ لا يمكنني أن أصف لك ما رأيت . إنه هائل جداً . لقد رأيت يوم الآخرة وما يصيب شارب الخمرة من عذاب . وأجهش بالبكاء . أشهد الله وأشهدك يا أم شكر أنني سوف لا أذوقها ما حييت ...

فخفق قلب أم شكر فرحاً ، واقشعر جسمها خشوعاً ، وأخذت تسائل نفسها :

أكانت ليلة القدر حتى استجاب الله دعاها ؟ أم أن أبا شكر قد استوفى **كاساته المعدودات ؟؟**

مرآة خالدة

مـرآة خـــالـدة

ما للسيدة إحسان تعود هذا المساء من سهرة رأس السنة كئيبة ضيقة الصدر تنضو عنها ثيابها الأنيقة بملل وفتور ، وترمي بها على أريكة قريبة منها غير حافلة بها ، ولا عابئة بما يصيبها من أذى ، ثم تقترب من مرآة نصبت في غرفة نومها فتتفرس في وجهها بإمعان فتكاد تنكره .

ياللمرآة الخبيثة ! لقد بدأت تتنكر لها من أمد غير بعيد . وها هي ذي اليوم تضرب ضربتها القاصمة فلا تدع مجالاً لتضليل أو تمويه .

لقـد خبـا بريق عينيهـا الأخاذتين وغارتا في محجريهمـا ، وتقصفت الأهداب الطويلة التي كانت تترك ظلالاً فاتنـة على الخدين . وبدا مكانهما تعاريج وتجاعيد حول العينين . وهذان القوسان البغيضان اللذان يحيطان بالفم من أين أتيا ؟ لقد حولا ابتسامته المشرقة إلى تكشيرة بغيضة . لقد همت أن تحطم المرآة التي بدت وكأنها تهزأ منها عسى أن تهدأ ثورتها إذا رأت شظاياها تتناثر في أرجاء الغرفة ...

لقد أحبت المرآة فيما مضى حباً جماً ، يوم كانت تشعر بزهو واعتزاز كلما نظرت إليها ، يوم كانت محط الأنظار تشرئب إليها الأعناق ، ويشار إليها بالأصابع يوم أطلق عليها المعجبون بها لقب ملكة النادي الذي تنتمي إليه ، ويوم أسر إليها الكثيرون من رواد هذا النادي إنهم ينتمون إليه من أجلها . فهي بهجتـه ، وكوكبه السـاطع . وما قيمته إذا خلا من قوامها الفتان ، ورقصها الموار ، وضحكها الماجن الرنان ؟؟

يااللزمن ماأسرع مضيه !..

ها هي ذي الآن لايحفل بها أحد ، ولا يعبأ بها إنسان ، حتى أصدقاءها القدامى بدأوا يتجاهلونها ويفرون منها . ولربما هزأ منها بعض الصبايا لفرط تأنقها . كما كانت هي في صباها تهزأ من العجائز المتصابيات . ومن يدري لعلهن وصفنها بالعجوز المتصابية ...

لقد أحست كأن كابوساً ثقيلاً يجثم فوق صدرها فتضيق به أنفاسها ، وشعرت بحاجة ملحة إلى البكاء . وأخذت تقاوم هذا الشعور ، فهي لا تطيق أبداً أن يفطن زوجها إلى ما يعتمل في نفسها . لقد تضخمت حنجرتها حتى كادت تنفجر ثم انهارت مقاومتها فاستسلمت إلى بكاء ذي نشيج مرير . فهرع زوجها يسألها عما بها . فلم تستطع الإجابة . يا للزوج الطيب !... أنى له أن يدرك ما يصيب الملوك إذا هوت عن عروشها ؟!..

فيسرع يستدعي طبيب العائلة ، ويقرر الطبيب :

إنها نوبة عارضة لا خوف منها ، ويعزوها إلى إرهاق الأعصاب بالسهر الطويل وهنا يجد الزوج مجالاً للوم فيقول :

هذا صحيح يا دكتور . لقد نصحتها كثيراً لتقلع عن عادة السهر رفقاً بصحتها فلم تستمع لنصحي .

فابتسم الطبيب ، الرجل المحنك ، وقال للزوج الطيب بعد أن رمق المرأة المتداعية بنظرة : أؤكد لك يا سيدي أنها ستستمع لنصحك من الآن فصاعداً !!...

وودع الطبيب مريضته بعد أن وصف لها علاجاً مهدئاً للأعصاب .

ثم قامت إحسان إلى سريرها تنشد النوم فلا تجد إليه سبيلا ، وعادت سهرة اليوم تتمثل أمامها كفلم سينمائي تتعاقب فصوله .

إن أكثر ما أثار غيرتها هذه الليلة هو الفوز الباهر الذي نالته تلك الصبية الحسناء ذات الأعوام التسعة عشر ، والتي حازت الجائزة الأولى التي وضعها النادي للجمال والأناقة .

لقد كان لجمالها الفتان فعل السحر في النفوس . فصفق لها الرجال طويلاً ، وكادوا يلتهمونها بأبصارهم التهاماً ، أما النساء فقد أخذن ينقبنها تنقيباً ، يفتشن فيها عن عيب ترتاح إليه نفوسهن فترتد إليهن أبصارهن وهي حسيرة .

كل ذلك كان يهون إلى جانب ما بدا لها من صديقها عدنان الذي كان من أشد المعجبين بها فيا مضى . لقد هجر النادي منذ أمد بعيد فلم تعد تراه إلا لماماً . فما باله اليوم يعود إلى النادي فيسرح ويمرح كسابق عهده ، ويراقص الفتاة الفائزة مراراً عديدة ، ويتناهى إليها ضحكه من بعيد بين آونة وأخرى فيلذعها هذا الضحك لذعاً ، ويبعث التنهدات من صدرها عميقة حارة . حتى إذا كان آخر السهرة يجيئها عدنان مجاملاً فيجلس إلى مائدتها ، ويحييها ببساطة كأن لم يأت أمراً إداً . ويسألها بوقاحة غير عابئ بشعورها :

ما رأيها بالصبية الفائزة ؟ لقد اعتزم أن يخطبها . فأرادت أن تغيظه فقالت :

ما أراك إلا كبير السن بالنسبة إليها ...

فأجابها غير مبال :

هكذا تقولين ؟! لا أعتقد أبداً أن الفتاة ترى رأيك . فأنا أبدو أصغر من عمري بكثير ، والفتاة معجبة بي أشد الإعجاب .

فلم تزد إحسان على أن قالت :

مسكينة !!... وتبادلا نظرتين عاتبتين .

وفجأة تتنبه إحسان إلى أمر يروعها . ترى هل انتقمت منها الأقدار فسخرت لها هذه الفتاة بالذات تثير غيرتها وسخطها ، وتستولي على عدنان حبيبها المفدى ؟ وإنها لتجدها قادرة على أن تمحو ذكراها من قلبه ...

وتطوح بها الذكرى إلى عشرين سنة خلت ، إلى ليلة ساهرة في عيد رأس السنة مثل هذه الليلة تماماً ، حينما جاءتها صديقتها الصغيرة سلوى وأسرت إليها أنها معجبة بالفتى عدنان أشد الإعجاب ، وإنها لتجد فيه فتى أحلامها ، وترجوها أن تكون هي واسطة التعارف بينهما ، وتسعى لربط أواصر المحبة بين قلبيهما . وإنها لتجدها خير من يستطيع النجاح في هذه المهمة بما فطرت عليه من لباقة ، وحسن تصرف .

فسعت إحسان حينئذ إلى تحقيق أمنية صديقتها سليمة القلب ، صافية النية . ولكن حدث ما لم يكن بالحسبان ! فقد أخذت هي بظرف الفتى ووسامته ، ولم يلبث هو أيضاً أن اعترف لها بحب دفين يقض عليه مضجعه منذ رآها أول مرة . ووجد هذا الاعتراف في نفسها المتعطشة وقتئذ إلى الحب مرتعاً خصباً . فنسيت صديقتها الغالية سلوى ، والغاية التي سعت من أجلها إلى عدنان ، ولم تذكرها له بتاتاً . واندفعت في حبه بغير هوادة ، اندفاعاً ملك عليها شعورها ، ثم أخذت تسعى لإقصاء سلوى عنه بكل ما لديها من أساليب . ولم تجد في ذلك كبير مشقة فقد انسحبت الفتاة من الميدان متأثرة بغدر صديقتها ، وهجرت النادي . ثم تناهت أخبارها إلى أعضائه ، فقد تزوجت ، وسعدت بزواجها ، وأنجبت طفلة جميلة .

ها هي ذي الطفلة تصبح صبية فاتنة ، تشاء الأقدار أن تقتص لأمها من صديقتها الغادرة .

وأخذت إحسان تتساءل : ترى هل يذكر عدنان تضحيتها في سبيله ،

يوم كانت تسعى له عند أولي الأمر متسلحة بفتنتها وجمالها حتى رفعته من شاب مغمور ، يتمنى رضاها ، إلى سيد مرموق يتخلى عنها ؟!!.

وبدت لها حياتها تافهة ، وماضيها بشعاً مرذولاً . تبدأ بشاعته يوم اختارت زوجها ، وصدفت عن كثير من الشبان الذين خطبوها ، ولربما خفق قلبها بالحب لبعضهم ، أما كان في وسع كل واحد منهم لو تزوجته أن يحميها من التردي في أوحال هذا الماضي البغيض ؟!.. ولكنها أصمت وقتئذ أذنيها عن داعي القلب ، وتزوجت من سمج غبي ، لم تنشد فيه إلا الثروة . الثروة الطائلة التي تتيح لجمالها الرفاهية والظهور اللذين يليقان به في عرفها .

وقد بلغ من حمقها مرة أن تخلصت من جنينها وهي في سكرة الشباب ، خوفاً من أن تشوه الأمومة جمالها الذي تعتز به ، فيزهد بها عدنان . ونتج عن ذلك عقم مستعص لم ينجح نطس الأطباء في شفائه ، عندما ثابت إحسان إلى رشدها ونشدت العزاء في الولد .

ترى هل ستفطن سلوى إلى الخدمة الجلى التي قدمتها إليها يوم حالت بينها وبين الزواج بعدنان ، الذي يماثلها في العمر أو يصغرها قليلاً ؟ أما كانت الغيرة القاسية ستنهشها كما تنهش إحسان الآن ، إذا رأته ينصرف عنها وهو ما زال في شرخ شبابه إلى الصبايا اللواتي في عمر ابنتها .

لقد سلبته منها خاملاً مغموراً ، وها هو ذا يعود الآن إلى ابنتها نابه الصيت ، رفيع الدرجات . ترى أي لوعة ستفري كبدها لو استطاعت أن تخترق الغيب فترى الفارق الشاسع بينها وبين صديقتها القديمة سلوى ؟...

عندما عادت من السهرة كانت تعسة تشعر بالخيبة والفشل ، بينما غمر صديقتها فيض من السعادة والرضى ، وهي مزهوة معتزة بابنتها الفائزة اعتزازاً لم تشعر بمثله منذ كانت في التاسعة عشرة من عمرها .

ولم لا تكون كذلك ؟ وقد أصـــابت هذه الليـلة من المديح الشـيء الكثير . فهذه صديقة عجوز تقول لها :

عندما رأيت ابنتك حسبتك أنت وقد عدت إلينا كما كنت في التاسعة عشرة من عمرك .

وهذا قريب لها يقول لابنتها على مسمع منها :

لاتتيهي كثيراً لقد كانت أمك أجمل منك .

وذاك يطريها فيقول :

لاعجب أن تأتينا أم كهذه بابنة كتلك .

ولذا لم يخطر لها أبداً أن تنظر إلى وجهها في المرآة وتتفرس فيه كما فعلت صـديقتهـا إحســان . بل تفرست في وجه ابنتها **مرآتها الخالدة** . فأشـاعت نضارته في نفسها طمأنينة ورضى . واستلقت على سريرها واستسلمت إلى نوم هنيء لذيذ بينما عاودت إحســان نوبة ثانيـة من البكـاء المرير سببهـا إرهاق الأعصاب بالأرق الطويل !.

ولعلها كانت بمنجاة من ذلك كله ، لو أن لها كصديقتها سلوى **مرآة خالدة** !.

يوسف عيد

يوســـف عيـــد

إن لتسمية (يوسف عيد) قصة طريفة .

كانت أمه مئناثاً قد رزقت من البنات سبعاً ، تلقى أبوهن مجيئهن إلى هذه الدنيا بصبر عجيب . وكأنه كان يتلو كلما بشر بأنثى : **فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون .**

ولكن لما حملت زوجه للمرة الثامنة ركبه هم شديد حرمه لذة النوم .

وما أدهشه ذات مساء أن قالت له زوجه فرحة مستبشرة :

بشراك سآتيك هذه المرة بغلام مئة بالمئة .

فسألها مستغرباً : أنى لها هذه الثقة بمجيء الغلام وقد خاب فألها سبع مرات متتابعات ؟!

فقالت له جادة :

لقد أخذتني جارتنا اليوم إلى الشيخ هارون ، إنه والله نادرة عصره ، شيخ مهيب الطلعة ، مهندم الثياب ، كله جلال ووقار ، وحجبه مجربة لا تخطئ أبداً . تلقانا ببشر وأنس ، فقبلنا يده المباركة ، ثم قصت عليه جارتنا أمري ، فقام فصلى من أجلي ثلاث ركعات ختمها بسورة (ياسين) وما كاد ينتهي منها حتى غشيته غيبوبة دامت بضع دقائق . ولما استفاق منها تناول مصحفاً صغيراً ثم فتحه مستخيراً لي ، فإذا هي سورة (يوسف) فقام إليَّ ودق صلبي ثلاث دقات قائلاً : صبي بمشيئة الله .

ثم وضع في عنقي حجاباً تناوله من على رف قريب منه وقال إنه كتب

فيه سورة يوسف ، وأمرني أن لا أنزعه من عنقي حتى الوضع . فنذرت أمام الشيخ إذا منَّ الله عليَّ بغلام أن أسميه (يوسف) ، وأنأدفع للشيخ ليرتين ذهبيتين ، كما إني دفعت له الآن ليرة رشادية ثمن الحجاب .

فقال لها زوجها حانقاً :

دفعت له ليرة ذهبية ؟! يا لك من سخيفة ! ثم أخذ يعنفها ، ويهزأ بها وبجارتها . ثم قال ساخراً :

هبي أن الله تعالى قد آذن بمنحك غلاماً . ثم أتيت الشيخ هارون فغلط ، والغلط من طبائع البشر ، وناولك من على رفه القريب منه حجاباً كان قد كتب فيه سورة مريم وأعده لطالبات الإناث فسيقلب الله عز وعلا الذكر الذي منَّ به عليك **أنثى** إكراماً لحجاب الشيخ هارون ، فتكون **المصيبة الثامنة** !... فخير لنا إذاً والأمر خطر ، أن نفتح الحجاب ونتأكد منه .

فاستشاطت الزوجة غضباً ، وحلفت بأغلظ الأيمان أنها ستترك البيت ، والبنات السبع إلى غير رجعة إن هو انتهك حرمة حجاب الشيخ ، لانه إذا فتح فسيبطل مفعوله ، ويذهب ثمنه الباهظ هدراً .

وخاف تهديدها فقال لها :

شأنك وما تريدين . ورمى إليها بالحجاب غير مبال . فقالت له :

يا ويلك ! أو تهزأ بكلام الله ؟

فأجابها بحدة :

أعوذ بالله وأستغفره . إنما أهزأ منك أنت ! كيف فرطت بليرة ذهبية ، لعلنا وبناتنا السبع أحوج إليها من الشيخ هارون . كما إني لاأخفي عليك إعجابي بالشيخ هارون ، إنه ولا شك ألمعي الذكاء ، يعرف كيف يستجر المال من البسطاء أمثالك على أهون سبيل .

ولكن ثقي لو أنك رزقت غلاماً وهذا ما أستبعده كثيراً ، فسوف لا أسميه يوسف ولو أوتي الحسن كله ، وتأويل الأحاديث أيضاً ، لأن لي زميلاً يسمى يوسف أبغضــه وأستثقله كثيراً ، ولا أريد أبداً أن أجعل له سمياً في بيتي ...

فسكتت الزوجة على مضض وهي تقول في نفسها :

وسيخلق الله ما لا تعلمون .

ومرت أشهر الحمل سراعاً . وكانت لا تخلو من جدل ينتهي في أكثر الأحيــان بمشــادة تدور حول الشيخ هارون ، وحجـابه الذي يطوق عنق الزوجة .

وشــاء الله أن تضـع الزوجة مولوداً ذكراً في أول يوم من أيام عيد الأضحى المبارك . فعم الفرح والبشر البيت بأسره ، ولكن لم تمض ساعات حتى عادت مشكلة تسميته إلى الظهور . أبوه يصر على تسميته (عيد) لأنه ولد في أول يـوم من عيـد الأضحى المبــارك ، وأمـه تصر علىأن تسـميـه (يوسف) لأنها نذرت ذلك أمام الشيخ هارون . وتخشى إن لم تف بنذرها أن يقصف الله عمر وليدها .

وبينما الجدل على أشده ، إذا رن في أرجاء البيت صوت جهوري ! يا ستار !

إنه الشيخ هارون بطـلعته المهيبة ، وجلاله ، ووقاره ، وتوجه تواً إلى غرفة الزوجة كأنه يعرفها وهو يقول :

أين (**يوسف عيـد**) ؟... هاته لأباركه . والتفت إلى المرأة وقال لها باتزانه المتكلف :

لقـد غشـيتـني هذا الصبـاح غيبوبة فرأيتك كما أنت الآن ورأيت في حجرك غلاماً كالقمر . ولما سألت ما اسمه ؟ هتف بي هاتف :

هذا يوسف عيد ...

فنـاولته وليدها خاشعة مبهوتة . ولما تناوله أخذ يتلو في أذنه بصوت خفيض بعض آي الذكر الحكيم . بينما كانت هي تنظر مزهوة شـامتة إلى زوجهـا الذي قبع في إحدى زوايا الغرفة حائراً صـامتاً ، وقد عقدت البغتة لسانه ، وكأنه كان يقول في نفسه :

لاشـك إنهـا إحدى كرامات الشيخ . من أين عرف أن زوجي قد وضعت الآن وهو يقطن حياً بعيداً عنا ؟ وكيف عرف أننا اختلفنا على الاسم فاختار لنا هذا الحل الوسط ؟ إنه إلهام من الله يخص به عباده المتقين ...

ولما انتهى الشيخ من القراءة تحول نحو الأب ، وصوب إليه نظرة حادة من عينيه النفاذتين جعلت الرجل يغض الطرف ، فابتسم الشيخ بترفع كالعافي عند المقدرة ، وقال له بصوت متزن وهو يهز رأسه : إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء . لابأس عليك ... خذ ابنك فإني لأتوسم فيه الخير والصلاح ، وانذر أن تذبح له في كل عيد أضحى ضحية تطعم منها الفقراء والمساكين ، وأبناء السبيل ، لتكون فدى تدفع عنه كل أذى ومكروه .

فأجابه خاشعاً متلعثماً :

أشـهد الله ، وأشهدك ياسيدي الشيخ أننـا سنفي بالنذر في كل عيد أضحى إن شاء الله .

ولما همَّ الشيخ بالذهاب تبعه حتى الباب ، ثم تناول كم جبته فقبله ، ودس في جيبه ليرتين ذهبيتين ، وكأنه قد أصبح أشد إيماناً به من زوجه .

ولما خلا الشيخ هارون إلى نفسه أخذ يضحك من هذا التوفيق العظيم الذي أصـــابه في هذا اليوم ، والذي سيجعـل له شهرة بعيدة الصيت . أي مصـــادفة عجيبة سـاقته إلى هذا الحي ، ثم جمعته بجارة المرأة ، فاستوقفته ، وانتحت به ناحية وقالت له :

إن جارتها أم البنات السبع التي جاءته بها منذ شهور واستخار لها ، قد وضعت الآن غلاماً كما تنبأ لها . ولكن أباه وهو رجل عنيد يأبى أن يسميه (يوسف) والأم في حيرة من أمرها ، فهل من بأس على الغلام إن لم يوف نذره ؟

فابتسم الشيخ ، وبرقت عيناه الحادتان ، وفكر قليلاً ، ثم قال للمرأة :

أعرف كل ذلك ، وها أناذا في طريقي إلى جارتك ... فهوت المرأة على يده تقبلها وتقول له :

نفعنا الله ببركتك يا سيدي الشيخ . ولا حرمنا الله منك . وها هو ذا البيت قريب منك ، أول باب في الحارة التي على يمينك . فأسرع يا سيدي إلى هذه المسكينة فهدئ روعها ...

وتمسكت عائلة (**يوسف عيد**) بالنذر تمسكـاً شـديداً ، فقد مرت عليها أيام يسر وعسر ، ونعيم وبؤس ، ولكن لم يأت عيد واحد دون أن تذبح الضحية وتوزع على الفقراء والمساكين ، ويخص الشيخ هارون بنصيب وافر منها .

ولما كان العيد العشرين قلب الدهر للأسرة السعيدة ظهر المجن ، فها هي ذي أم يوسف عيد تحتل مع ابنتها الصغرى غرفة حقيرة في إحدى حواري دمشق القديمة . لقد أصبحت لاجئة فلسطينية ، كسـيرة القلب ، مهيضة الجناح . لقد تشتت شمل الأسرة فمات الأب كمداً إثر نكبة فلسطين !! ثم

تفرقت البنات ، فتزوج بعضهن ، ومارس بعضهن الخدمة أو التمريض ، و(يوسف عيد) كان في ذلك الحين في صفوف النار مع رفاقه الشباب ، يرد كيد الغاصبين ، ويدافع عن أرض الوطن ، والحق السليب .

واختفى الشيخ هارون فلم تعد تعرف أين مقره لتلجأ إليه في الملمات .

وفي صبيحة عيد الأضحى قالت لها ابنتها :

ما لك يا أماه ؟ لقد رأينا من الأهوال أشدها ، ومن المصائب أفجعها ، فما رأيتك تبكين بمرارة وحرقة كاليوم . فأجابتها والعبرة تخنقها :

أنسيت أنه عيد الأضحى ؟... وليس بوسعنا أن نضحي لأخيك كما نذرنا له . ولعله الآن أحوج ما يكون إلى ضحية تدفع عنه أذى العدو ومكره . وإني لأخشى إن لم نف بالنذر كما وعدنا الشيخ هارون ، أن يكون هو الضحية في هذا العيد !!...

فوجمت الصبية قليلاً ، ثم انبسطت أساريرها وقالت لأمها : أنسيت خاتمي ؟ وناولتها خاتماً ذهبياً هزيلاً هو كل ما تبقى لها من حليها . فتناولته الأم لاهفة ، وأسرعت إلى السوق ثم عادت بعد ساعة وهي تقول لابنتها :

لقد اشتريت بثمنه خروفاً صغيراً ضحيته ، وأطعمته الفقراء عسى أن يتقبله الله منا .

ونامت أم يوسف عيد ليلتها تلك مطمئنة النفس ، مرتاحة البال .

لم يمض على هذا الحادث سوى أسبوع واحد حتى كان (**يوسف عيد**) بين أمه وأخته الصغرى يقص عليهما بأعجوبة نجاته فيقول :

كنا بضعة رجال في أعلى التل الذي في حدود بلدنا ، نصلي العدو ناراً حامية ، فإذا هو يحصرنا ويضرب حولنا نطاقاً ويوالي إطلاق النار علينا . فاعتصمنا برأس التل ثلاثة أيام نفد خلالها زادنا ، وكادت تنفد ذخيرتنا . وفي

اليوم الرابع رأينا العدو يفك الحصار . ويكف عن إطلاق النار . فعجبنا من أمره أشد العجب . فقال أحدنا وكان طيب القلب :

اليـوم عيـد الأضحى ، وقد اعتـاد المحاربون أن يراعوا حرمة الأعيـاد فيكفوا عن إطلاق النار . فضحكنا منه وقلنا له :

لم نعهد في عدونا النبل والشهامة . ولكن لأمر ما رفع عنا الحصار ، فهذه فرصة لا تفوت . ولم يكن أمامنا سوى طريق واحدة فأخذنا نغذ السير فيها ، حتى إذا وصلنا سفح التل انفجر أمامنا لغم هائل كان العدو قد أعده لنـا . فاستشهد بعض الرفاق !! وأصيب بعضهم بجروح ثخينة ، وكنت أنا الوحيد الذي لم يصب بأذى ...

كانت أمه تصغي إليه وقلبها يضرب بقوة وعنف ، ثم سألته :
أكان ذلك أول يوم عيد الأضحى المبارك يا بني ؟!

أجابها : بكل تأكيد يا أماه .

فتبادلت الأم وابنتها نظرة تخللتها دموع الفرح ...

لقد تقبل الله الضحية فكانت منجاة **ليوسف عيد** ...

نار ودخان

نــــار ودخـــــان

كنا بضعة عشر شخصاً في فندق صغير اعتدنا ارتياده كلما هبطنا تلك القرية اللبنانية النائية ، التي تشرف على واد من أودية لبنان السحيقة ، تزدحم فيه أشجار الصنوبر خضراء نضرة ، تياهة بقاماتها المياسة . ولم يمض على وجودنا في الفندق مدة وجيزة حتى ائتلفنا مع نزلائه ، وكانوا نخبة جمعتنا بهم المصادفات السعيدة ، فإذا نحن كأصدقاء مضى على تعارفهم أمد بعيد .

كنا نقضي ساعات ممتعة أصيل كل يوم على شرفة الفندق نرقب روعة الغروب ، ونتبادل شتى الأحاديث والنكات ، وكان من بيننا كاتب لبناني كبير مع زوجه ، وهي سيدة سورية ألمعية الذكاء . وأديب نابه من حلب ، ووجيه شامي وزوجه . وسيدة مصرية خفيفة الظل على إفراطها في التأنق .

ويتطور الحديث بيننا مرة ، فإذا نحن نتحدث عن الغيرة وتأثيرها في الرجل والمرأة ، وعن أي دور تلعبه بين زوجين حبيبين . فردد الأديب القول المأثور :

الغيرة دخان الحب ، فإذا خمدت ناره ذهب دخانه !

ويتبادل الوجيه الشامي مع زوجه نظرة يعقبانها بضحكة عالية أثارت فضول السيدة المصرية فقالت :

لابد لهذه الضحكة من قصة طريفة ، ألا توافقون معي على سماعها ؟

فقال الكاتب اللبناني :

بل نصر على ذلك ...

فقالت زوجة الوجيه الشامي :

لو لم تصبح هذه القصة من ذكريات الشباب البعيدة لما قصصتها عليكم . وقبل أن أقصها أحب أن تعلموا أن زوجي هذا الذي ترونه ماثلاً أمامكم ، قد قاسى كثيراً من المتاعب والآلام حتى استطاع أن يتزوجني .

فرفع الزوج حاجبيه ونظر إليها دهشاً ثم قال :

كأنني وحدي الذي قاسيت ! وأنت ألم تقاسي أبداً في سبيلي ؟؟.

قالت : لم أنكر أنني قاسيت أيضاً ، فكلانا كان مفتوناً بالآخر . ولكنني لم أصل إلى ما وصلت إليه أنت ... أبسط لهم بالله عليك يدك اليسرى فما زال فيها ندبة تثبت أنك قطعت شرايينها لتنتحر ! وذلك عندما أراد أبي أن يحرمك مني ويزوجني من ذلك الثري الحموي . ولو لم تسعف في الوقت المناسب لكنت الآن في عداد شهداء الحب .

فعلت حمرة الخجل وجه الزوج ، وأخفى يده اليسرى في جيبه وقال :

نحمد الله ، لقد مضى الشباب وجنونه ... فأجابه الكاتب اللبناني بلهجة آسفة :

سبحان الذي لا يحمد على مكروه سواه !

وحانت مني التفاتة فرأيت الأديب يحدق النظر بالسيدة وهي تقص علينا حكايتها ، والإعجاب ملء عينيه . وكأني به يقول في نفسه : لقد كان الرجل على حق عندما حاول الانتحار في سبيل هذه الفاتنة ، فالخمسة والأربعون عاماً لم تجرؤ أن تنال شيئاً من رشاقة قوامها اللدن ، ولا من نضارة وجهها الفاتن ، فما زالت رغم السنين تتحدى بنات العشرين جمالاً وحيوية .

كانت تقول بلهجتها الشامية غير المتكلفة :

ورغم كل هذا العشق والهيام ، لم يمض على زواجنا قليل ولا كثير حتى

أخذ يذيقني العذاب أشكالاً وألواناً . فما من شيء كان يحلو له كإثارة غيرتي بكل ما لديه من أساليب شيطانية . حتى كنت أشعر أحياناً كأنني في أتون من نار . أتصدقون أنني رأيته مرة يلوث منديله بأحمر الشفاه ليوهمني أن له عشيقة وهذه آثارها على المنديل .

كانت تتكلم وهو ينظر إليها مأخوذاً وكأن الخمسة والعشرين عاماً التي قضاها مع زوجه لم تطفئ بعد بريق الحب في عينيه . ثم قال وكأنه يريد أن يبرر نفسه :

ما ذنبي أنا ؟ إذا كانت هي تعمل من الحبة قبة ، ومن الزبيبة خمارة . كنت أملُّ الحياة الهادئة الرتيبة فأثير أمثال هذه المشاكل الممتعة بالنسبة إليّ ، وهي من الحياة في نظري كالملح من الطعام .

فقالت زوجة الكاتب اللبناني :

أو كان يحلو لك دائماً أن ترى **الدخان** ، أعني دخان الحب لتطمئن أن **النار** ما زالت مشتعلة .

فأجابها بظرفه المعتاد :

وهذا أيضاً ألا تجدينه سبباً وجيهاً يا سيدتي ؟...

أجابته ضاحكة : بل كل الوجاهة .

ثم تابعت زوجه حديثها فقالت :

استيقظت ذات صباح ، وصحتي على غير ما يرام . فآثرت البقاء في سريري ، ولاحظته منهمكاً في ارتداء ملابسه يستعرض كل ما لديه من أربطة العنق فيختار أزهاها وأثمنها ، ثم يضع في جيبه منديلاً ملائماً لها ويحكم في عروته زهرة حمراء ، حتى إذا فرغ من تأنقه ، وأنا أرمقه صامتة ولكن بعين يقظة . التفت إلي وقال :

أنا اليوم مدعو على الغداء فلا تنتظري مجيئي . فسألته :

ومن هو الذي دعاك ؟...

فحدجني بنظرة ساخطة ثم تبرم وقال بتهكم :

وهل من الضروري أن تعرفي دائماً من يدعوني ؟

ثم صفق الباب وذهب . وذهلت من تصرفه هذا . وما كاد يبتعد قليلاً حتى تنبهت من ذهولي ، وشعرت كأن ناراً اتقدت فيَّ ، ولم أعد أطيق المكث في السرير رغم ضعفي . فأخذت أذرع أرض غرفتي جيئة وذهابا . والشيطان يوسوس لي ويمعن في وسوسته . لا شك أنه على موعد مع امرأة ... أخاله قد اغتنم فرصة مرضي فرتب هذا الموعد . ترى أي لعينة تلك التي أغوته ؟. ولكن سوف لأجعله يفلت من يدي هذه المرة أبداً . ولن أدعه ينعم بموعده مهما كلفني الأمر .

وكان وقتئذ يشغل وظيفة في إحدى المصالح . فأيقنت أن موعده على الغداء تماماً . أي بعد انتهائه من عمله . فأخذت انتظر الوقت وأنا نافدة الصبر . فلما حان الموعد ارتديت ملاءة طباختي ذات الطراز القديم والحائلة اللون ، وحذاءها البالي . ووضعت على وجهي نقاباً كثيفاً جداً ، وسرت في زيي هذا الزري المضحك حتى مصلحة الحكومة التي يشتغل فيها ، ووقفت أرقب خروجه عند الباب . وبدأ الموظفون يخرجون زرافات زرافات ثم رأيته يهبط الدرج بجبروت مزهواً بقوامه الفارع ، وما كاد يسير بضع خطوات حتى تبعته ، ولكي أكون على مقربة منه تماماً حاذيته ، ثم مددت إليه يدي أسأله العطاء ، وأنا أتمتم بالدعوات كما اعتادت أن تفعل المتسولات في الشوارع .

فأخذ يفتش جيوبه ولما لم يجد بها ما يعطينه قال لي :

على الله ...

فأيقنت أنه لم يرتب في أمري أبداً . وتابعت سيري وراءه ، وما زلت ألحّ عليه بالسؤال ، وهو يتهرب مني ، حتى رأيته يتجه نحو سيارة واقفة في دروة من الطريق وقد لمحت فيها امرأة وشخصاً آخر لم أتبينه ... فأخذ جسمي يضطرب ، وأوصالي ترتعد . وإذ هو يلتفت إليّ ويقول بنزق :

وأخيراً أتذهبين من أمامي أيتها المرأة ، أم أقذف بك بعيداً ؟.

وعندها أسفرت عن وجهي وقلت له :

يا خداع !... أتستطيع أن تكذب علي هذه المرة أيضاً وقد رأيتك رأي العين ؟ قل من هذه التي بالسيارة ؟؟؟

فقفز من أمامي مرتاعاً وهو يقول :

أنت؟ أعوذ بالله منك! يالك من مجنونة!!... ما الذي حدا بك لتفعلي ما فعلت ؟ وكيف استطعت أن تتركي السرير ؟.

وأخذت أصوات الضحك تتعالى من السيارة ، ثم فتح بابها ونزل أخوه وامرأته وأخذا ينظران إلي ويتابعان ضحكهما بصوت عال . ثم قالت امرأة أخيه :

يا لها من مفاجأة سارة ! كنا ننتظر زوجك لنأخذه معنا إلى ضيعتنا حيث دعوناه ليتناول الغداء معنا هناك . وكم تمنينا أن تكوني معنا ، فقد بلغنا أنك مريضة لا تستطيعين أن تبرحي سريرك . ولكن لحسن الحظ ها أنت ذي قد أتيت وعلى أتم أناقة ...

وتعالى صوت الضحك مرة ثانية على قارعة الطريق . وأنا أكاد أتمزق غيظاً ، وصممت أن أعود من حيث أتيت .

ولكنني لم أستطع التخلص منهم ، فذهبت إلى الدعوة بزيي الزري

هذا . وكانت حادثة ما زالت أسرتنا تتندر بها إلى الآن . وما زال زوجي يتخذها حجة ضدي كلما أراد أن يدلل على غيرتي العمياء .

كانت تقص حكايتها بطلاقة جذابة ، والسيدة المصرية الأنيقة صامتة على غير عادتها . تدخن اللفافة تلو اللفافة ، وهي تنظر إلى الأفق البعيد وقد صبغته الشمس الغاربة بلون الأرجوان . وكأن خيالها يسبح في أجواء بعيدة ... ترى هل أثارت بها القصة ذكريات عزيزة ؟ أم تراها تغبط الزوجين على نعماء الحب ، رغم ما فيها من نار ودخان ؟...

لو ينكسر الحديد

لـو ينكســـر الحـــديد

آه يـا أبي المسـكـين ! إن أنس فلن أنسـى ذكراك المؤلمة ... وتلك الصرخة الملوية التي ناديتك بها عندما نطق القـاضي بحبسـي خمسـة عشـر عاماً !!... فوقعت حينئذ في قفص الاتهام مغشياً علي . إنني لم أفكر شهد الله آنئذ بهول تلك السنين الطويلة التي سأقضيها بالسجن بقدر ما فكرت فيك أنت المريض المقعد الذي لا عائل لك سواي . كيف سيقع عليك الخبر ؟! ومن سيتفقدك ويرعاك ! ستموت !! وفي الموت راحة لأمثالنا . ولكن كيف تموت ؟ أجوعاً وعطشاً ؟ أم قهراً وكمداً ؟...

كأني أسمع نشـيجك وقد بـلغك خـبري فاستســلمت إلى بكـاء لا ينقطع ، وكأني أرى دموعك تنهمر فوق وجهك الوديع فتبلل لحيتك البيضاء . إن قلبي لينفطر عليك أسىً ... أناقم أنت عليّ يا ترى ، أم مشفق ؟؟ أحاقد ، أم راحم ؟.

إني لأذكرك الآن يوم كنتُ في الثالثة عشرة وقد ماتت أمي فمنينا بأول نكبـة . فمـا زلت تواسيني ، وما زلت أواسيك حتى تغلبنـا على الحزن . وأصبحت على صغري سيدة بيت ، أتذكر كيف أنتظر مجيئك مساء كل يوم أمام الباب ، ولما يطالعني وجهك الحنون من أول الحارة كنت أهش لك ، وأسرع إليك ، فأتناول السلة من يدك ، وأهرع إلى المطبخ أفرغها ، فأجد فيها كل ما يلزمنا من طعام وفاكهة ، ودائماً فيها شيء خاص بي ، إما مجلة مصورة ، أو منديل زاه ، أو قطعة من الشوكولاته . وكنت تخلع ثياب عملك الملوثة

بـالدهـان وتـأتي إلى المطبخ تسـاعدني بـالطبخ . وكان الجـيران يسـمونني (المدللة) . وكم كنت أتيه وأعتز بهذه التسمية .

وكأنك كنت تخشى عليّ من الزلل، فنادتني ذات صباح ودفعت إليّ صحيفة يومية وطلبت مني أن أقرأ لك الأخبار المحلية ، فلما انتهيت إلى خبر مفاده أن أباً قتل ابنته لأنها زلت ، قلت لي :
نعم ما فعل ، تسلم يداه هكذا يجب أن تجازى الخاطئات ... وأخذت تكررها بلهجة حازمة . وفهمت أنا أنك تريد أن تلقي علي درساً ، فضحكت في سري من هواجسك ، فما كان أغناني عن هذا الدرس .

وفي مساء ذلك اليوم بالذات حلت بنا النكبة القاصمة ، فقد وقعت من أعلى السـلم وأنت منصرف إلى عمـلك ، فحمـلوك إلى دارنا مهشـم السـاقين ، وبعد علاج طويل التأمت جراحك ، ولكنك أصبحت مقعداً ، وعاطلاً عن العمل !!

أتذكر كم كنت بك بارة ؟ إنني لم أبرح غرفتك لحظة واحدة ، حتى كنت أنت تشفق علي فتطلب مني أحياناً أن أذهب فأزور الجيران ، أو بعض صديقاتي لأرفه عن نفسي قليلاً ولكنني ما كنت لأفعل أبداً . وأنفقنا كل ما لدينا من مال ، وأخذ شبح الجوع والعوز يكشر عن أنيابه فيؤرقنا حتى الصباح . كنت أسمع تنهداتك في بهيم الليـل ، وأشعر أنك تبكي فأبكي أنا أيضـاً في فراشي ، وكلانا يكتم ما بنفسه عن الآخر .

وفي غمرة هذا الضيق تقدم لخطبتي جارنا حسان ؛ ووافقت أنت لأنك وجدته كفوءاً لي ، فهو شاب جميل المحيا ، حسن السمعة والخلق . وما أظنك فكـرت آنئـذٍ بنفسـك تجاه سـعـادتي ... أما أنا فقد رفضت هذا الزواج ، ورفضته بإصرار .

أتصدق يا أبي أنني كنت أحب ذلك الشاب حباً عميقاً ؟ فقد أمضيت معه طفولة سعيدة . ولما شببت وتحجبت كنت أرقب كل يوم مجيئه ورواحه ، فأسرع إلى النافذة لأتزود منه بنظرة ، أو ألقي إليه تحية . ورغم كل ذلك رفضته من أجلك أنت ... لأنه فقير !. وقد أصبحت أنشد زوجاً غنياً لكي يستطيع أن يعولني ويعولك . ولو كنت أحسن عملاً لكرّست نفسي لك ولم أفكر بالزواج أبداً ...

وبعد قليل جاء الزوج الغني . وكان عملاقاً بغيض الشكل ثقيل الظل . فترددت أنت وأشفقت علي . وأقدمت أنا ... وألقيت في روعك أنه بغيتي المنشودة ، فلم يبق لك أي اعتراض .

وكان الزواج وما عتّمت أن اكتشفت خيبة أملي ! كان سيء الخلق ، يزيد في جفاء طبعه ما فطر عليه من الأنانية والبخل . كنت أقاسي الأمرّين لأوفر مبلغاً يسيراً من المال أنفق منه عليك وعلى جارتك العجوز الطيبة التي أخذت ترعاك منذ تزوجت .

كم كنت أمقته يا أبي ... كانت تنبعث من فمه رائحة كريهة تتقزز منها نفسي ، فأشعر بميل إلى القيء كلما اقترب مني . وكم كان يحلو له أن يلصق وجهه بوجهي فأشيح عنه متأبية . وما كان ليخفى عليه هذا الإعراض فينتقم مني بكل ما يزعجني وينكد عيشي . كان يحرم عليّ أن أزور صديقاتي ، أو أستقبلهن في بيتي . كنت أعيش معه وكأنني في سجن . ولشد ما تعذبت واحتملت العذاب صابرة . كنت أخفي عنك كل ذلك ، وأوهمك أنني سعيدة راضية . ولذا كنت تعجب أشد العجب عندما ترى صحتي تسوء ، وجمالي يذوي ، وشبابي يذبل !.

وذات مساء ، بينما كنت منصرفة من لدنك ، لقيني حسان ، فاقترب مني وحياني ، ثم قال لي دون مقدمة :

أنت مثالية ... عظيمة ... أنا لست حاقداً عليك لأنني أعرف تماماً لماذا لم تقبلي بي زوجاً لك ، وإني لمدرك الآن ما تقاسينه من مرارة وعذاب ...

وأصابت كلماته صميم قلبي ، فطفرت الدموع من عيني ، وانفجرت باكية . وكانت الطريق مقفرة فسار إلى جانبي يواسيني .

ولما وصلت إلى بيتي فتحت محفظتي وأخرجت المفتاح فسألني :

ألا يوجد في بيتك أحد ؟

قلت : لا ... إنه يوم الجمعة حيث يذهب زوجي في مثل هذا اليوم من كل أسبوع إلى ضيعته يتفقدها ، وتعطل الخادم فتذهب إلى زيارة أهلها .

فإذا هو يدخل البيت معي ... وترددت طويلاً ... وارتبكت ولكنني لم أقو على منعه ! لقد كنت وحيدة في هذه الحياة . وفي أشد الحاجة إلى من أشكو إليه همي فيشعر معي ، ويواسيني .

ماذا أقول لك يا أبي ؟؟. إن الندم والخجل يبكتانني تبكيتاً !! منذ ذلك اليوم أصبح حسان حبيبي المفدى ...

كان يوافيني إلى بيتي كل يوم جمعة . وكنت أنتظره بصبر فارغ ، ونفس لاهفة . لقد أصبحت أستسيغ الحياة منذ أحببته . فعاد إليّ إشراقي ، وتحسنت صحتي ، حتى العملاق أصبحت أستطيع أن أحتمله أكثر من ذي قبل . فلا أشيح عنه متأبية ، ولاحظ هو هذا التغير فقدره لي ، وأخذ يغدق عليّ من ماله ، وأخذت أغدق عليك بدوري .

ولكن ذلك النعيم لم يدم طويلاً !. فذات أصيل خرجت مع حسان

إلى الحديقة أودعه ، وكانت أمسية من أماسي الربيع الفاتنة ، وقد صبغ السماء شفق كلهب النار ، وفاحت روائح مسكرة ، وغرد شحرور فوق وردة يانعة . ولأول مرة بدت لي حديقتنا فاتنة . فاستوقفته قليلاً تحت ياسمينة فواحة العبير ، ولفت نظره إلى سوسنة مختبئة بين الأغصان ، وسحبته من يده لأريه حوض النيلوفر النادر . فأدركنا الوقت ونحن في غفلة حالمة ، فإذا العملاق ينتصب أمامنا ... ودون سؤال أو جواب سحب حسان من رباط عنقه ، وأخذ يكيل له اللكمات . ثم طرحه أرضاً وجثم فوق صدره وقبض على عنقه بكلتا يديه القويتين وأخذ يضغطه بكل ما لديه من قوة ... لقد رأيت عيني حسان تجحظان وكأنهما تبرزان من محجريهما .. إنه يموت !!... ولم أعد أعي شيئاً ...

وتنبهت بعد حين على ضوضاء شديدة ، فإذا جمهور من الناس يلغطون حولي ، فلم أفهم مما يقولون شيئاً . ولم أدر من أين جاءوا ؟ وكيف اجتمعوا ؟ أكانوا مختبئين حولنا يرقبوننا ؟ وجاء رجال من الشرطة فاقتادوني وحسان إلى دائرة حكومية . بينما كان العملاق مسجى على الأرض ...

كنت ذاهلة حاولت كثيراً أن أجمع شتات ذهني فلم أفلح . سألوني كثيراً فلم أحر جواباً . يقولون أنني تناولت فأساً كانت ملقاة على أرض الحديقة وهويت بها على رأس العملاق فحطمت جمجمته بضربة واحدة ...

وربما كان ذلك صحيحاً . ولكني لا أذكر منه شيئاً أبداً .

وبعد هذا كله أتجدني يا أبي أهلاً لغفرانك ؟؟ أم تتميز غيظاً ، وتتحرق حنقاً ، وتتمنى لو كنت سليماً معافى لتجازيني كما يجب أن تجازى الخاطئات ؟! فتمحو عارك بيدك ...

آه لو أستطيع أن أكسر حديد هذه النافذة الضيقة التي أمامي ، لو استطعت ذلك ، لألقيت بنفسي إلى الشارع وهرعت إليك ...

ولكن سوف لاآتيك هذه المرة بفاكهة أو حلوى كما اعتدت أن آتيك ، بل سآتيك بسكين حادة النصل أضعها في يدك وألقي بنفسي أمامك ، ولك أن تغمدها أين شئت من جسدي ، ولكن **الحديد يا أبي المسكين لا ينكسر** !!...

الحظ العاثر

بدوي

الحـــظ العـــاثـر

كنَّ ثلاث صبايا طالبات في معهد داخلي . غافلن ناظرة المعهد في ليلة مقمرة ، وغادرن أسرتهن وتسللن إلى السطح ليسمرن في ضوء القمر . وكانت ليلة ساجية إلاّ من نسائم بليلة تحمل عبير الأزاهير . وقد غمرت الكون نشوة ممتعة تبعث في النفوس سروراً واطمئناناً ، وتغريها بالاسترسال في أحلام حسان عذاب .

واتفق أن كان ملاك الحظ وملاك الرحمة يتنزهان . فسمعا كركرة الصبايا وثرثرتهن فقال ملاك الرحمة :

تعال يا أخي لنمتع النظر برؤية هؤلاء العذارى يرفلن بغلائلهن البيضاء الهفهافة ، ونلهو بالاستماع لأحاديثهن البريئة العذبة . وحط الملكان على السطح . وكانت تتكلم شقراء وردية اللون لكلامها جرس ساحر ونغمة أخاذة قالت :

تسألاني يا صديقتي عما إذا أتيح لي الاختيار أي الرجال أفضله زوجاً .

إني أريده ثرياً واسع الثراء ، ذا مقام رفيع وجاه عريض ولا يهمني إذا كان عجوزاً دمياً ، أو بليداً سمجاً لأنني سأصرف من وقتي مع الناس أكثر مما سأصرفه معه . ويكفيني أن أسكن قصراً منيفاً ، وأقتني أفخم السيارات ، وأرتدي أحدث الأزياء ، وأتحلى بأثمن الحلي وأندرها ، ثم أقيم المآدب والحفلات أدعو إليها علية القوم ، فأتصدر المحافل ، وأجعل من منزلي ندوة لأساطين الفن ، وعباقرة الأدب ، ودهاة السياسة .

ولم تكد تصل في حديثها إلى هنا حتى قطعته عليها سمراء هيفاء ذات أهداب طويلة قالت :

أنا على عكسك تماماً ، لأنني أريده ذكياً وسياً ، ظريفاً ، كيساً ، وافر العلم والأدب ، ولا يهمني إذا كان فقيراً مملقاً ، أو مغموراً منسياً ، فيكفيني أن أحبه ويحبني وأخلص له ويخلص لي .

وما انتهت إلى هنا حتى رنت ضحكة ساخرة أطلقتها صغيرة عاجية اللون ، ذات شعر فاحم قالت :

يا للسخف ! هلا كان الغنى والجاه ! إلا حيث الشيخوخة والدمامة ؟! وهلا كان الصبا والجمال إلا حيث الفقر والإملاق ؟!

إنني أريده شاباً جميلاً ، ذكياً ، غنياً ، ذا مقام وجاه .

وهيمن السكون على الفتيات الثلاث ، وأخذن ينعمن بأحلامهن العذاب .

فقال ملاك الرحمة لملاك الحظ :

ما عليك يا أخي لو حققت لهؤلاء العذارى أمانيهن ؟.

قال : أحقق لهن أمانيهن ؟ إنك يا أخي لا تدري من أمرهن شيئاً .

فأجابه ملاك الرحمة :

لقد صدقن عندما وصفنك بالقسوة ، والحمق ، والرعونة . والله لو كنت مكانك لحققت لكل صبية أمنيتها .

فضرب ملاك الحظ كفاً على كف وقال :

يحقق لكل صبية أمنيتها ! **لقد عشت دهري أبذل جهدي فما فزت بإرضائهن !.**

ولكن ملاك الرحمة ثبت في مكانه وأبى أن يريم وقال :

والله لا أبرح مكاني حتى تبتسم في وجوه هؤلاء العذارى ابتسامتك العريضة التي تحقق صعاب الأماني ، ونوادر الأحلام .

فلم يشا ملاك الحظ أن يخيب رجاء صديقه فابتسم في وجوه العذارى ابتسامة عريضة لاح منها نور باهر ، كالبرق الخاطف عشيت منه عيون العذارى ، وخفقت له قلوبهن ، فحسبنه ليلة القدر ، فتمتمن بالدعوات ، وتقدمن بالرجيات ، وقمن إلى أسرتهن خاشعات فنمن حالمات هانئات .

وما انقضى العام حتى كان ملاك الحظ قد وفى لهن أحسن الوفاء .

فتزوجت الأولى بشيخ غني أخذ يغدق عليها الخيرات كما تمنت تماماً .

وتزوجت الثانية ببطل من أبطال الرياضة تملأ العين وسامته ، ويثير الإعجاب ظرفه وكياسته .

وتزوجت الثالثة بوارث شاب ، قد جمع إلى الصبا والجمال ضخامة الثروة وعراقة النسب .

ودارت عجلة الزمن . وملاك الحظ لاه عن فتياته الثلاث ، ماض في عمله ، لا يكل ولا يمل ، يبتسم في وجوه فيرفعها إلى أعلى عليين ، ويعبس في وجوه فيهبط بها إلى أسفل السافلين .

واتفق أن مرّ مرة أمام المعهد الداخلي . فرابه أن رأى فيه حركة غير عادية ، فاستطلع الخبر فعرف أن المعهد يقيم حفلة بمناسبة يوبيله الخمسين قد دعا إليها جميع خريجاته مع أسرهن .

وكانت تتصدر الحفل الشقراء الوردية اللون ، ذات الجرس الساحر . وكان إلى جانبها شيخ عجوز يبدو بليداً سمجاً . وقد تدثرت الصبية بفراء فاخر . وأخذت تلمع عليها الجواهر واللآلي .

ولكن ملاك الحظ رابه أن رأى على وجهها كآبة ظاهرة ، تحاول أن تتغلب عليها بالكلام مرة ، وتصرفها بالابتسام مرة . لم يخف عليه معناها ، فأرسل نظرة فاحصة من عينيه النفاذتين اخترقت نفس الصبية حتى بلغت أعماقها فإذا هي تخاطب نفسها قائلة :

يا لحظي العاثر ! لقد أسأت الاختيار عندما تزوجت من هذا العجوز الذي يطالعني بدمامته إذا أصبح الصباح ، ويلاحقني بسماجته إذا أمسى المساء ، يرافقني أينما ذهبت ، ويتبعني حيثما وليت . ولا أذكر أني اتفقت معه على رأي مهما يكن ، إنما أجامله ويجاملني . مالي ولهذه المظاهر الكاذبة ؟ لقد ضقت به ذرعاً ...

قالت ذلك واستقرت عيناها على شاب وسيم جميل قد تحلق القوم حوله ، يضحكون من نكاته اللطيفة ، ويصغون لحديثه الطريف . ويعجبون بأناقته ولباقته . وكانت إلى جانبه السمراء الهيفاء ذات الأهداب الطويلة . ولكنها كانت تبدو صامتة ساهمة ، شاردة اللب ، كأنما قد شغلت بما في نفسها عمن حولها . فأرسل ملاك الحظ نظرته الفاحصة التي تسبر غور النفوس . فإذا هي تخاطب نفسها قائلة :

يا لحظي العاثر ! لقد أسأت الاختيار عندما تزوجت من شاب لا هم له إلا أن يوزع ظرفه وكياسته على الناس ، لأنه لا يمل من مديحهم وإطرائهم . لقد مللت نكاته بعد أن سمعته يرويها للناس مئة مرة . وماذا أفدت أنا من كل هذه الوسامة والقسامة ، والأناقة واللياقة ، والظرف والكياسة سوى أن أعيش إلى جانبه مغمورة منسية . يا ليتني تزوجت غنياً . قالت ذلك وألقت نظرة عجلى على ثيابها البسيطة ، وحدجت رفيقتها الشقراء بلمحة استطاعت بها أن تقدر ثمن الفراء الفاخر ، واستقرت عيناها على الخاتم الماسي الكبير الذي حال بريقه وإشعاعه دون تقدير حجمه وثمنه .

ثم قال ملاك الحظ في نفسه :

أين الصغيرة العاجية اللون ذات الشعر الفاحم ؟ لعلي قد أفلحت معها حيث أخفقت مع رفيقتيها .

وأخذ يفتش عنها في أرجاء المعهد فلم يجدها ثم سمع صديقتيها تسألان عنها ناظرة المعهد ، فتجيب هذه أنه ورد منها اعتذار عن الحضور فهزت الصديقتان رأسيهما وقالتا في نفسيهما :

يا لسعادتها ! إنها لا تجد في وقتها الحافل بالمسرات ، والمآدب ، والحفلات متسعاً لحفلة سخيفة كحفلة المعهد .

ولكن ملاك الحظ أحب أن يتحقق من ذلك بنفسه . فطار إلى قصرها خفيفاً ، فراعته الحديقة الواسعة ، وأدهشه القصر المنيف والخدم والحشم يروحون ويجيئون في أرجائه ، وبهره الرياش الفاخر والتحف النفيسة . ثم أخذ يفتش عن ربة القصر إلى أن عثر عليها وقد أوصدت باب غرفتها وأخذت تبكي بكاءً مراً .

فقال :

يا للكنود الكافرة ! ما خطبها أيضاً ؟؟

فإذا هي تخاطب نفسها قائلة :

يا لحظي العاثر ! لقد أسأت الاختيار عندما تزوجت هذا الشاب المتلاف ، الذي يبذر المال يميناً وشمالاً ، فتتخاطفه الأندية ، وتتسابق الجمعيات إلى دعوته ، ويلاحقه رفاق السوء بشباكهم ، وتطارده النساء الغاويات بأحابيلهن . فلم يجد في وقته متسعاً ليرافقني إلى حفلة حبيبة إليّ ، عزيزة عليّ كحفلة المعهد . وخجلت أن أذهب وحدي حيث رافق صديقاتي أزواجهن .

يا ليته كان عجوزاً لكان سعى إلى مرضاتي ولما استطاع أن يخالف لي رغبة .

أو ليته كان شاباً فقيراً لما حاول أن يشاركني به أحد .

وعندئذ ضرب ملاك الحظ كفاً على كف وقال :

يا لحظي العاثر ! لقد أسأت الاختيار عندما رضيت أن أكون ملاك الحظ ...

أين ملاك الرحمة ؟ ليرى بعينيه ويسمع بأذنيه أنني **عشت دهري أبذل لهن جهدي فما فزت ولن أفوز بإرضائهن** !!.

كلام رجال

كـــلام رجـــال

بدأت تباشير الصباح ، وأطلقت المدافع إحدى وعشرين طلقة معلنة فجر العيد . وأم حسن ما زالت تتقلب في فراشها لم يغمض لها جفن طوال هذه الليـلة الثقيـلة . وكيف يعرف النوم إلى جفنيها سبيلاً ووحيدها حسن الذي ترى فيه مناط هنائها ، وغاية أملها قد هجر البيت عقب أول خلاف نشب بينها وبينه بعد موت أبيه .

لقد بدأت تشعر بالندم ، وتعترف في قرارة نفسها أن تصرفها مع ولدها لم يكن تصرفاً لبقاً ولا حكيماً . إن توجيه الأولاد في فجر شبابهم يحتاج إلى كثير من الحكمة وطول البال ، وهي لا تنقصها تلك الصفات ، ولكن بئست الساعة التي دخلت فيها المطبخ ! فرأت خادمتها زهراء بين ذراعي ولدها حسن يتبادلان قبلة طويلة لعلها كانت قبلة العيد ... أما كان يجدر بها أن تعود من حيث أتت دون ان يشعرا بها ، ثم تتدبر الأمر بحكمة وروية ، فتلجأ إلى الحيلة والمداراة لتخرج من مأزق حرج وجدت نفسها فجأة فيه ...

لعن الله ساعة الشيطان ! ساعة الغضب التي تخرج الإنسان عن طوره مهما يكن حكيماً . لقد سيطر عليها الانفعال فلم تعد تذكر من كل ما قالته لهما من السباب والشتائم سوى قول ابنها بوقاحة لم تعهدها فيه :

ــ إذا طردتها سأذهب معها . ولن تري وجهي أبداً .

ــ إلى جهنم الحمراء أنت وهي . أجابته بحدة دون تفكير . فإذا هما

بعد قليل يفتحان الباب ويذهبان دون أن يلتفتا إليها كأنهما على استعداد لهذه المفاجأة .

أيصدر هذا عن حسن ؟ ولدها البار الذي كان يأتمر بأمرها فيحب ما تحب ، ويكره ما تكره . وقد قارب العشرين وما ارتفع صوته فوق صوتها أبداً . كم كانت تفاخر به جاراتها وصاحباتها معددة طيب صفاته ، ألا يشمتن بها عندما يبلغهن الخبر ؟ أينقلب بين ليلة وضحاها من طيع دمث ، إلى شرس جحود ، من أجل فتاة حقيرة انتشلتها هي من البؤس ولما تتجاوز السابعة منْ عمرها فأسبغت عليها ما أسبغت من عطفها وحنانها حتى إذا استوت فتاة يانعة طمعت بسيدها حسن ؟!.

أنسيت اللعينة أنها ابنة غسالة معدمة ؟ يا للخبيثة كم كانت تجيد تمثيل الطهر والعفاف !!

ولكن أليست الخطيئة خطيئتها ؟ كيف لم تحسب حساباً وهي المرأة الخبيرة التي حنكتها السنون ، لما يتوقع حدوثه بين شاب غرير ، وصبية فاتنة في فورة الشباب يظللهما سقف واحد ؟

ولكن لابأس فما هي إلا سحابة صيف ستنقشع عما قريب وسيعود حسن إلى صوابه وستعرف كيف تؤدب الكنود الماكرة ...

ثم أخذت تندب حظها العاثر ، وما آل إليه حالها بعد موت زوجها . أين عزها القديم ؟ وأين أعيادها الماضية من هذا العيد ؟ يوم كان بيتها يعج بالمهنئين وبفقراء الحي يوزع عليهم المرحوم لحم الأضاحي ، وعلى صغارهم حلوى العيد ، التي كانت تصنعها بيديها طول الليل حتى تملأ منها الصواني . وأين حسن الصغير الوديع ، من حسن الشاب الوقح ؟. ما أجمل الأولاد صغاراً !

وتمثل لها صغيرها حسن ليلة العيد كيف كان يبيت ثيابه الجدد وحذاءه اللامع قرب سريره ، حتى إذا استيقظ باكراً ارتداهما عجلاً ، ثم أخذ يطالب أمه وأباه بالعيدية فرحاً مستبشراً ، فيملأ البيت غبطة وسروراً . وتساقطت من عينيها الدموع على تلك الأيام الخوالي !.

ثم نهضت إلى صلاة الفجر ، ودعت الله دعاءً حاراً ليهدي ابنها سواء السبيل ، ويقيه عثرات الشباب ، ويعصمه من شر النساء الفاجرات . ثم أخذت ترتدي ثيابها وكأنها كانت تتعمد إحداث ضجة في البيت فقد ضايقها السكون الشامل ، وشعرت بالوحشة المطبقة ولم تجد أحداً لتصحبه معها إلى المقبرة لتزور قبر زوجها في صبيحة العيد كما هي العادة ، واضطرت أن تنادي أجير الخباز القريب من دارها وتعطيه بضعة قروش ليحمل لها أغصان الآس التي اشترتها البارحة لتزين بها قبر المرحوم زوجها كما هي عادة الدمشقيين في الأعياد ، وأخذت تحث الخطا نحو المقبرة لتبلغها قبل شروق الشمس . ولما وصلتها رأت الشيخ عبد الرزاق الذي اعتاد التلاوة على قبر المرحوم قد تبعها واتخذ سمته أمام القبر ، وأخذ يقرأ بصوته الحنون آي الذكر الحكيم . ولكنه لاحظ أن أم حسن على غير عادتها ، تبدو شاردة اللب كأنها في غير هذه الدنيا ، فهي لم تحيّه تحية العيد ، ولم تسأله عن حاله وأولاده ، ولم تقرأ الفواتح وتهبها لموتاها دامعة العينين كما كانت تفعل في مثل هذا اليوم من كل سنة . وما بال ابنها حسن لم يأت معها كعادته ؟ ثم رآها تنظر بعينين زائغتين في كل أرجاء المقبرة الواسعة كأنها تترقب أحداً ، أو كأنها ترى المقبرة لأول مرة في العيد وتعجب كيف استحالت إلى غابة من أشجار الآس والصنوبر فما من قبر علا أو تواضع إلا وزين بالأغصان الخضر ، وهي تعج بالناس وقد كساهم العيد ألبسة زاهية ، وكأن الوفاء يحتم عليهم أن يبدأوا يومهم بزيارة موتاهم لينصرفوا بعدئذ إلى أفراح العيد .

ولكن ابنها حسن لم يكن بينهم ، يا للولد العاق ! أيتخلف عن زيارة قبر أبيه في مثل هذا اليوم ؟ كانت تأمل أن تجده هنا فتستحلفه بحرمة الراحل العزيز أن يعود إلى البيت ، ومن ثم يعود التفاهم بينهما ويشعر بخطيئته الكبيرة وعندئذ تسعى لتزويجه من فتاة عريقة تليق به . ولكنه لم يأت ! لقد همت أن تشكو همها إلى الشيخ عبد الرزاق عساه يجد لها مخرجاً فهو صديق العائلة من عهد زوجها ، ولكنها خافت ألا يكتم السر ، فأكثر ما تخشاه أم حسن أن يشيع الخبر فيبلغ مسامع جارها الحاج عبد الصمد ، زعيم الحي ، وأكبر ثري فيه . فقد عزمت أن تخطب ابنته الصغرى إلى ابنها حسن . وهي على يقين أنه لا يرفض الخطبة أبداً . وهل هناك صهر خير من حسن ؟ زين شباب الحارة ، شكل حلو ، وأخلاق عالية ، وسمعة طيبة ، ومن كل علم خبر . وما بدر منه البارحة سيظل طي الكتمان إذا عرفت هي كيف تتدبر الأمر . وبسرعة البرق حسبت ثروة الحاج عبد الصمد وثمنت أملاكه وضياعه بالليرات الذهبية ، ثم قسمت الحاصل بين زوجتيه وصبيانه الثلاثة وبناته الخمس . فنالت كل بنت خمسة آلاف ليرة ذهبية ...

خمسة آلاف ليرة ذهبية ! أخذت أم حسن تكرر هذه الجملة بزهو وتقول في نفسها :

وإن لم تكن لابنة الحاج عبد الصمد قوام الخادمة زهراء اللدن . ولا بشرتها الناصعة ، ولكن خمسة الآف ليرة ذهبية ألا تطيل القامة القصيرة ، وتبيض الوجه الأسمر .

ولم يقطع سيل تفكيرها سوى قول الشيخ عبد الرزاق : صدق الله العظيم . فوضعت في يده شيئاً من المال، دسه في جيبه وهو يتمتم بالشكر والدعوات .

وعادت أم حسن إلى بيتها مبلبلة حيرى ، وهي ترجو أن تجد ابنها قد سبقهـا إليـه . ولكن أملها قد خاب . وبدا اليأس يتسرب إلى نفسها . وما كادت تستقر قليلاً حتى طرق الباب وجاءها جارها الحاج عبد الصمد زائراً . فاستقبلته مرحبة مرتبكة ، وقد طفر الدم إلى وجنتيها وتساءلت : ما الذي جاء به باكراً ؟ وماذا تقول له إذا سألها عن ابنها حسن ؟ أما هو فقد بادرها قائلاً : جئت يا أم حسن أســألك أمراً ، وأنا على يقين أنك لا تخالفين لي رغبة ، فعديني بحق الجوار عليك وبرحمة المرحوم أن تنفذيه لي مهما يكن صعباً . وأنا أعرف أن **كلامك كلام رجال** .

ولهذه الجملة سحر عجيب في نفس أم حسن فلا شيء يعدل في نظرها أن يكون كلامها **كلام رجال** ... فقالت في نفسها :

لعـله جاء يســألني أن أبيعـه قطعـة الأرض المتـاخمة لبيته ليوسع بها حديقته ، وكان قد طلبها من المرحوم فأباها عليه .

ــ أنا طوع أمرك يا حاج عبد الصمد ، يا جار الرضى على أن تنفذ لي أيضاً ما أريده منك مهما يكن عزيزاً عليك .

فأخذ الرجل الماكر يعبث بلحيته ويخفي ابتسامة ولعله أدرك بفطنته ما تريد فضحك في نفسه وقال لها :

ــ وأي شيء يعز على أم حسن ؟ كل غال في سبيلها رخيص . ولكن ألا تعـلمـين أن جبر القلوب في الأعياد واجب علينا ، وأنت خير من يجبر القلوب ، ولذا جئت أسألك أن تجبري قلباً عزيزاً عليك فبدت المرأة وكأنها لم تع مما يعني شيئاً . فإذا ابتسامة عريضة تعلو شفتيه الغليظتين ثم يقوم فيفتح باب الدار وينادي بصوت عال :

تعال يا حسن وعروسك زهراء ، وقبلا يدي أمك فقد وعدتني أن تبارك

زواجكما ، وترضى عنكما وكلامها كلام رجال ... فشهقت أم حسن شهقة عالية ثم أغمي عليها من هول المفاجأة ... فهرعت زهراء ترش بماء الزهر وجه سيدتها بالأمس وحماتها اليوم ، وعلى فمها ابتسامة ظفر واعتزاز . بينما وقف حسن مشدوهاً . ولما بدأت تستفيق من إغمائها كان أول ما تبادر إلى ذهنها هو أن تحقق رأي الحاج عبد الصمد فيها فالتفتت نحوه وقالت :

لولا خاطرك ، ولولا إني أعطيتك **كلام رجال** . وحملقت جيداً ولكنها لم تره ، لأنه كان قد اغتنم فرصة مناسبة للانسحاب !!.

للآغا أبو الدّب

الآغـــا أبـــو الـــدّب

في ليلة حالكة السواد هجر أبو حمود القرية التي أفنى شبابه في خدمة أرضها ، دون أن يلقي عليها نظرة أسف . ثم أخذ يضرب في الأرض ويكدح ، وبعد جهد جهيد جمع مبلغاً ضئيلاً من المال اشترى به قطعة أرض رخيصة في قرية من قرى وادي بردى ، تشرف على واد سحيق ، ينساب فيه النهر الغزير ، قد حبتها الطبيعة الجمال وحرمتها الخصب ، ولذا زهد فيها الطامعون الجشعون فتركوها لأهلها يعيشون على الكفاف ، عيشة موفورة الكرامة ، ولذا انجذب إليهم أبو حمود الذي ذاق في شبابه مرارة العبودية والهوان من السادة المالكين . وابتنى في أرضه الصغيرة بيتاً كما كان يأمل ويشتهي ، وأخذ يعيش على نتاجها الضئيل عيشة راضية على ما فيها من بؤس وحرمان .

ولم يمض عليه قليل من الزمن حتى اندمج في سكان قريته الجديدة فأصبح كواحد منهم يفرح لفرحهم ، ويحزن لحزنهم فأحبوه ملء قلوبهم ، لقد وجدوا فيه الأب الرحيم ، والأخ الكريم ، والصديق الحميم . فهو يحل مشاكل الرجال ، ولا يمل شكاة العجائز ، ولا يبخل بإرشاد الشباب . ولا يبوح بأسرار العذارى وهو فوق كل ذلك عالي الهمة ، كامل المروءة . إذا رأى العجوز أم ديب تجبل الطين لتصلح سقف بيتها ، شمر عن ساعديه وتطوع لمساعدتها دون مقابل ، وإذا عاد من عمله مساء عرج على أبي مصطفى المقعد فأعانه على بعض حاله . وإذا قطف أبو غانم ثري القرية تينه وعنبه ، وملأ السلال لتباع في دمشق ، انتدب أبا حمود لهذه المهمة لأنه يأتمنه على رزقه أكثر من كل إنسان .

وما راع سكان القرية ذات يوم إلا اختفاء أبي حمود من بينهم . فأخذوا يتساءلون عن سر هذا الاختفاء المفاجئ وكل منهم يعلل له سبباً . ولكن غيابه لم يطل . فذات ليلة كانت السهرة معقودة في مضيفة أبي غانم فإذا أبو حمود يطل على السامرين بقامته المديدة ووجهه الطلق . فاستقبلوه بهرج ومرج ، ورحب به أبو غانم وما كاد يستوي في مكانه قرب الموقد حتى بادره قائلاً :

من أولها يا أبا حمود ! أين كنت ؟ ومن أين أتيت ؟ فسعل أبو حمود وتنحنح وفتل شاربه الأشيب بلباقة فهو يقدر مكانته بين هذا الجمع ويعتز بها ثم قال :

طالما سألتموني يا أخواني عن السبب الذي من أجله هجرت قريتي ولجأت إلى قريتكم هذه . فكنت كما تذكرون أروغ من الجواب لأنه ينكأ جراحاً عميقة في قلبي . أما الآن وقد اندملت جراحي أو كادت ، أحب أن أقص عليكم ما خفي من أمري ، لتعلموا أن في السماء منتقماً جباراً . الويل كل الويل لمن لا يخافه ويخشاه !

كان صاحب قريتنا ونلقبه (بالآغا) من هؤلاء السادة القساة ، الذين يستنفدون قوى أجرائهم حتى إذا نفدت نبذوهم نبذ النواة ، وتخلوا عنهم كما يتخلى الإنسان عن خرق بالية .

وفي إحدى العشيات بعد أن فرغنا من عملنا المضني جلسنا في باحة القرية كعادتنا نستروح ، ونتحدث عن (الآغا) فقد بلغنا أن امرأته حامل بعد عقم دام عشرين عاماً صرف (الآغا) خلالها للأطباء والمشايخ ما يعادل ثقل زوجته الغالية ذهباً . وإذ نحن نسمع زامور سيارته ينعب من بعيد ، فتبادلنا النظرات . كم كنا نكرهه ، ونوجس شراً كلما جاء القرية .

وما هي إلا لحظات حتى كان بيننا ، فوقفنا بين يديه جميعاً ننتظر

أوامره ، فأخذ يتفحصنا واحداًواحداً ، إلى أن وقعت عيناه على مصطفى جاسم ، أشجع شباب القرية وأفتلهم عضلاً ، فقال له بلهجته العاتية :

اسرع يا مصطفى واذهب إلى الوادي ففي نهايته شجرة لوز تأتي أكلها قبل غيرها من الشجر ، واقطف ما استطعت من ثمرها وعد إلي سريعاً (فالخانم) وحمى وقد اشتهت اللوز الأخضر .

فتلكأ مصطفى قليلاً ثم قال :

ألا يمكن أن آتيك به غداً صباحاً ؟ فقط هبط الليل وطريق الوادي بعيدة وخطرة .

فحدق فيه الآغا وقد برق بعينيه شواظ من نار ، ثم انتهره قائلاً :

آه يا كلب ! أنت قليل المروءة منذ عرفتك . هل تخشى أن يأكلك الظلام ؟ أقول لك أن (الخانم) وحمى وقد اشتهت اللوز الأخضر فمن يدري إذا أبطأنا به عليها أن يأتي المولود وفي خده أو جبهته شكل لوزة تشوه جماله ؟ أسرع فأنا بانتظارك . وإياك أن تغيب أكثر من نصف ساعة ... وتطوع اثنان من رفاق مصطفى جاسم لمرافقته ، ولكن (الآغا) زجرهما بشدة قائلاً :

وحياة رأسي لا بد أن يذهب وحده لأعلمه الشجاعة والرجولة ، وإلا طردته الآن من قريتي ، فأنا لا أحب الكسالى الجبناء ...

وطأطأ مصطفى جاسم رأسه ، وقام يجر خطاه نحو الوادي وهو يقول :

لا أريد أن يرافقني أحد لا أريد !. وأخذنا نتبعه بأنظارنا ونحن سكوت حيارى حتى غيبه الظلام . فقد كنا ندرك ما يحف بطريق الوادي من أخطار . وكنا ندرك أن مصطفى جاسم لا يستطيع التمرد فهو يخاف الطرد لأن وراءه زوجة وخمسة أطفال .

ومضت نصف ساعة ولم يعد . وبدأ الآغا يتململ . ثم أخذ يكيل له

السباب والشتائم ، حتى مضت ساعة كاملة نفد خلالها صبر (الآغا) فركب سيارته وأخذني مع اثنين آخرين ، واندفع بنا ينهب الأرض نحو الوادي . وما كدنا نصله حتى رأينا منظراً مخيفاً وقف من هوله شعر رؤوسنا : كان مصطفى جاسم ممدداً على الأرض وقد جثم فوقه وحش هائل ... ولما تقدمنا منه تبين لنا أن دباً كاسراً داهمه وهو عائد ، ولم يكن معه من السلاح إلا مدية صغيرة أخذ يدافع بها عن نفسه ، ولكنه لم يستطع أن يجهز على الدب ، الذي زادته الجراح استفراساً فأنشب مخالبه في عنق مصطفى وأغمد هذا بدوره مديته في قلب الدب وخر الاثنان على الأرض فوق بعضهما صريعين ...

وعندما رأينا ما رأينا طاش صوابنا ، فأخذنا نكيل للآغا قارص القول ، وشديد اللوم ، ونلعن الساعة المشؤومة التي طالعنا بها وجهه ، وقد هجم عليه أحدنا يريد أن يصفعه . فما كان منه إلا أن أشهر مسدسه في وجوهنا نحن العزل وصاح فينا بصوت كالرعد :

اخرسوا يا كلاب ... يا كفار ... هذه هي الساعة التي وعده بها الله ، وقد ألهمني أن أرسله إلى هنا ليستوفي الميتة التي كتبها عليه . أنتم لا تدركون من أمر دينكم شيئاً !...

فتراجعنا وقد كظمنا غيظنا مرغمين . لقد كانت له علينا سيطرة عجيبة . أو بالأحرى كانت نفوسنا قد اعتادت الخنوع والذل .

ثم قال وقد خفف من حدته قليلاً :

ولكن هل قطف اللوز يا ترى ؟ فتشوا جيوبه . وتقدم أحدنا وأخرج اللوز من جيوب القتيل ووضعه في السيارة ، بينما كان (الآغا) يتفحص الدب بدهش ويقول :

يا له من دب رائع ، ما أبدع فروته ، احملوه إلى السيارة أريد أن

احتفظ به . وانطلق باللوز الأخضر ، وبجثة الدب الرائع إلى زوجه الوحمى ...

وحملنا نحن قتيلنا إلى القرية ، ونفوسنا تعتلج قهراً ولوعة واشمئزازاً ! وكان مأتماً لم تشهد له القرية نظيراً ، وكأنه قد أقيم في كل بيت من بيوتها .

ومضت شهور لم نر (الآغا) خلالها . ولا حديث لنا إلا مأساة مصطفى جاسم الذي أقمنا له قبراً على هضبة في مدخل القرية ، وأخذنا نسهر كل يوم حول قبره حيث يحتدم الجدال بيننا جميعاً أو على الأصح بين شيوخنا وشبابنا ، الشباب يريدون أن يثوروا على (الآغا) . فهذا يتطوع لاغتياله ، وذاك يقترح أن نحرق الغلال ونهجر القرية ، والشيوخ يمانعون . فقد ألقي في روعهم أن الثورة لا تجديهم إلا شراً على شر . فلنترك الأمر لله فهو وحده كفيل أن يقتص من كل جبار عنيد .

ولم تهدأ وطأة هذا الجدل إلا عندما عادت ذات صباح إحدى بنات القرية وكانت تشتغل خادماً عند (الآغا) وأسرت إلينا : إن زوج الآغا ماتت أثناء الولادة بعد أن وضعت مخلوقاً عجيب الشكل ، له **رأس دب وجسم إنسان** ... وقد دفع الآغا مبالغ طائلة للأطباء والممرضات ليخنقوا المخلوق العجيب ويكتموا أمره لكي لا يصبح أحدوثة المتحدثين ، وفرحة الشامتين .. واستولى الحزن عليه إلى حد جعله يعتكف في بيته فلا يبرحه إلا نادراً . ومنذ ذلك اليوم أطلقنا عليه فيما بيننا اسم (**الآغا أبو الدب**) وكنا حريصين جداً ألا يشيع هذا اللقب خوف أن يبلغ مسامع (الآغا) فينتقم منا بلؤمه المعهود .

أما أنا الذي كنت أشد الرفاق حماسة ، فقد بلغ مني اليأس أشده عندما رأيت النفوس تهدأ بعض الشيء ، ولم تعد لي قدرة على إثارتها . أتنتهي قضية مصطفى جاسم عند تسمية الآغا (بأبي الدب) ؟؟..

وفي أثناء ذلك ماتت أمي . فلم يبق لي من يربطني بالقرية حيث لا زوج لي ولا ولد فهجرتها إلى غير رجعة . وانقطعت عني أخبارها سنين طويلة ، ولكن أول البارحة رأيتها في حلمي وكأنها قطعة من الجنان . فهزني الشوق إليها وألحّ لرؤية مراتع الشباب ، ورفاق الصبا ، فشددت إليها الرحال وقبل أن أبلغها بقليل استوقفني رجل ترجل من سيارة وسألني قائلاً :

أتعرف يا أخ أي طريق تؤدي إلى قرية **أبي الدب** ؟

فحملقت في وجهه دهشاً ، ثم انقلبت ضاحكاًوقلت له :

إنني أقصدها . فقال :

تعال إذن اركب معنا .

ولما صرت بينهم فهمت أنهم مرسلون من قبل (الآغا) ليكونوا واسطة صلح بينه وبين فلاحي القرية الذين تمردوا عليه منذ شهور . أما الآن فقد تراجع عن غلوائه أمام بأسهم ، ورضخ لكل شروطهم على أن يدخل بعد اليوم قريته آمناً ...

فكادت الدموع تطفر من عيني فرحاً . ولما صرنا على مقربة من القرية لاح لي قبر مصطفى جاسم وقد طلي بدهان أبيض ، وزين بأغصان خضر كأنه توفي اليوم . فتذكرت مأساته الأليمة ، التي حفزت رفاقه على الثورة .

أما أنا فقد آثرت العودة من حيث أتيت ، لقد وجدتني لا أستحق أن أشاركهم في يوم نصرهم ... فقد يئست وفررت . حيث صمدوا وجاهدوا حتى نالوا حقوقهم من **الآغا أبي الدب** ...

الدرس القاسي

الـدرس القـاسـي

كان سعيد بك أو كما يسميه أصدقاؤه ومحبوه (أبا السعد) ذا موهبة نادرة في إلقاء الأحاديث ورواية النكات . ولطالما ودَّ سامعوه لو أنه لا يسكت ابداً . وقد يروي النكتة المرة والمرتين والثلاث فلا تبلى جدتها ولا تفقد رونقها ، وكثيراً ما طلب منه أصدقاؤه أن يعيد عليهم حديثاً عرفوه ، أو نكتة سمعوها منه مراراً عديدة فيدهشون للحديث ، ويضحكون للنكتة كأنهم يسمعونهما أول مرة .

وكان أبو السعد إلى جانب مقدرته هذه ملماً بكل شيء . فهو يهوى الأدب ، ويفهـم الموسيقى ، ويجيد الرقص إجادة تامة ، ويمارس أكثر أنواع الرياضة ، ويلعب بكل ألعاب التسلية . لقد كان شخصية فذة حقاً . وما كان ليُرى مرة إلا وهو محاط بأصدقاء يمتد ضحكهم ويعلو صخبهم .

فلمـا كانت إحدى العشيات انتظم عقد الأصدقاء حلقة حول أبي السعد يسألونه أن يحدثهم حديث الملهى يوم فر من دمشق إلى لبنان . وما كان أكرمه فهو لا يبخل بشيء مما يطلب منه . فقال :

عندما كنت في المصيف اعتدت كل ليـلة أن أقوم بنزهة سـيراً على الأقدام ، فقادتني قدماي مرة إلى ملهى من تلك الملاهي اللبنانية الأنيقة ، التي تُبعث في الصيف وتموت في الشتـاء . جذبتني أنواره اللألاءة ، وموسيقـاه الصاخبة فما وجدتني إلا وأنا أحتل وحيداً إحدى موائده ، اقلب النظر في من حولي من الناس ، وكلهم يبدون سعداء فرحين أو هكذا أحبوا أن يظهروا .

فبعضهم يسمر ويشرب ، والآخر يرقص ويصخب . ولفت نظري أناس جلوس إلى موائد لا يسمرون ، ولا يرقصون ، ولا يشربون بل يتهامسون ، فيحصون على الراقصين والراقصات حركاتهم ، ويعدون على الشاربين والشاربات كؤوسهم ، ويحاسبون السامرين والسامرات على نظراتهم ، وفلتات لسانهم . ولما كنت وحيداً لا أنيس لي حذوت حذوهم ، ونسجت على غرارهم رغم مقتي الشديد للفضول . ولما كانت مائدتي مشرفة على ساحة الرقص تماماً حلا لي أن أراقب الراقصين والراقصات فأفسر أوضاعهم كما يشاء لي خيالي الخصيب ...

فهذه امرأة نصف قد آذن جمالها الخلاب بالغروب ولم يبق منه إلا لمحات كتلك الومضات التي تنبعث عن الشمس عند المغيب ، تراقص شاباً وسيماً ، وتحاول أن تستأثر به فتمعن في الكلام والضحك والحركات لتصرفه عن الكواعب الحسان اللواتي كن ينتثرن حول كثير من الموائد كالنجوم اللماعة . وما أظنها بالغة ما تريد فها هو ذا الشاب يخالس سمراء فاتنة نظرات بنظرات كلما أتيحت له الفرصة .

وهذا رجل قصير ممعن في القصر ، يراقص امرأة فارعة الطول فتبدو وكأنما قد أشرفت عليه من عل . أظن أن القصر قد أحرق كبده فأحب الطول ورأى فيه آية الجمال حتى ولو كان مشوهاً كطول هذه المرأة .

هذه امرأة ضخمة قد حجبت مراقصها عني فما بدا منه شيء أبداً . ما كان أحراها لو تركت التثني والتلوي للصغيرات اللدنات ! وهذا الفتي ، وهذه الفتاة كأنهما أبولو يراقص فينوس ، لقد تعطلت لغة الكلام بينهما فأخذا يتفاهمان بلغة العيون لغة الحب تفسرها لهما الموسيقى ، فمرة أماني وأحلام ، وأحياناً اندفاع وحماسة ، وتارة بهجة ولذة ، وطوراً هدوء واسترسال . إنهما لا

يعبآن بأحد كأن الملهى لهما وحدهما ، والموسيقى لم تعزف إلا من أجلهما فقط ... والفتى ممعن في شد الفتاة إليه وكأنما قد قبض على السعادة بكلتا يديه وخشي أن تفلت منه .

وهذا رجل أنيق على أبواب الكهولة قام عن مائدة بجانبي تماماً حيث ترك امرأة وديعة الوجه ، صافية العينين أظنها زوجه . ودعا إلى الرقص من مائدة مجاورة فتاة مياسة القد ، ممشوقة الخصر . فكان إذا مر من أمام زوجه أثناء الرقص ، رقص بجد واتزان ليوهمها أن الرقص ما هو إلا رياضة مفيدة ، وفن تحلو ممارسته ، ومجاملة لا بد منها . فإذا توارى عنها بين الراقصين والراقصات ضم الصبية إليه بوله وحنان ، ومر بيده على خصرها الممشوق ، وهمس في أذنها بكلمات تتبعها زفرات . والصبية ترقص بكل حواسها ، وتتابع الموسيقى حتى بنظراتها الخلابة .

أما الزوجة فكانت تتابعهما بنظرها فمرة يشرئب عنقها ، ومرة يلتوي يمنة ويسرة . وما أظن أنه قد خفي عليها شيء من حركاتهما ، حتى بدت وكأنها تتآكل غيرة وغيظاً . ثم شعرت إني أراقبها فخجلت وابتسمت ابتسامة شجعتني على أن أكلمها فسألتها :

ــ أليس زوجك هذا الأنيق الذي يراقص الحسناء الممشوقة ؟

قالت بمرارة :

بلى إنه هو .

قلت : فهل تسمحين إذن برقصة مماثلة ؟

قالت : بكل سرور .

وما كدنا نبتدي بالرقص حتى آذنت الموسيقى بانتهاء الرقصة ، وعزفت لرقصة أخرى . فعاد الزوج إلى مائدته واندفعت معها بالرقص . ثم قلت لها :

كأنه يروقك أن نمر من أمام مائدة زوجك ....

قالت : إنك لشديد الذكاء من أين عرفت ذلك ؟

قلت : عرفته من شدة الذكاء ... وضحكنا . ثم قلت لها :

انظري إليه كيف يتبعنا بنظراته ، فمرة يشرئب عنقه ، ومرة يلتوي يمنة ويسرة ، هكذا كنت أنت منذ هنيهة .

قالت : هل مهنتك أن تجلس في هذا الملهى فتحصي على رواده حركاتهم وسكناتهم ؟؟.

قلت : نعم ... إنها مهنتي ...

قالت : يا لها من مهنة خاسرة !!

قلت : ولكن لا تنسي إنها يسرت لي الرقص معك ... ومهنة تيسر الرقص معك ليست بالمهنة الخاسرة ...

فابتسمت لاطرائي وقالت :

ها أنت ذا قد فهمت كل شيء ، أحب أن ألقي **درساً قاسياً** على زوجي .

قلت : ومن أبرع مني في إلقاء مثل هذه الدروس ؟

وكنا نرقص بجد واتزان ، فلما قاربنا مائدة الزوج أحببت أن ابدأ **الدرس القاسي** ، فحاولت أن أضمها إلي بوله وحنان . وأن أهمس إليها بكلمات تتبعها زفرات .

فنفرت قليلاً وقالت :

حذار من هذا فزوجي لا يستهان به .

قلت : أما أردته درساً قاسياً ؟ وما أدراك أنت **بالدروس القاسية** ؟ أما رأيته كيف كان يراقص الحسناء المشوقة ؟

قالت ممتعضة : بلى لقد رأيته ...

قلت : فهل أنت ممن يستهان بهن ؟...

قالت : معاذ الله . ولكن ما يغفر للرجل لا يغفر للمرأة !.

قلت : آراء عتيقة لا محل لها في القرن العشرين . لقد جاهدت المرأة كثيراً حتى أصبحت صنو الرجل تماماً . وما دمت تؤمنين بهذه الآراء البالية فما أنت بصنو رجل أبداً .

فتلكأت قليلاً ثم قالت :

أعزب أنت ؟

قلت : نعم .

قالت : فإذا فكرت بالزواج هل ستختار امراة تكون صنو الرجل تماماً ؟

قلت : ولكن سوف لا أفكر بالزواج على الإطلاق .

قالت : ولماذا ؟

قلت : لأنهن أصبحن جميعاً أنداد الرجل !

فضحكت بخبث ثم قالت :

ها أنت ذا قد تراجعت واعترفت أن المرأة التي تكون صنو الرجل تماماً امرأة غير مرغوب فيها . ولا يصرفنك هذا السبب عن الزواج فتسيء الظن بكل النساء ، ففيهن الكثيرات مثلي لا يرغبن أبداً أن يكن أنداد الرجال في يوم من الأيام .

وشغلتنا هذه المناقشة فتجاوزنا مائدة الزوج حيث فاتنا أن نمثل ما يجب علينا تمثيله ! وكانت الموسيقى قد آذنت بانتهاء الرقصة الأخيرة ، فانحنيت أمامها بلطف وقلت :

أيكفي درس واحد لتأديب زوجك ؟
قالت : ما أظن ، ربما لزمه درس آخر !
قلت : فإلى غدٍ إذن .
قالت : إلى غدٍ ... وإياك أن تغير مائدتك .

ولما عدنا كل إلى مائدته تلقاها زوجها بنظرة قاسية ، ودعاها فوراً إلى الانصراف ، وحيتني وهي منصرفة بإيماءة لطيفة من رأسها ، وبغمزة من عينيها الصافيتين : أن إلى غد ...

فلما كان الغد تلقيت دعوة إلى وليمة عشاء فاخرة أقامها بعض الأصدقاء الأعزاء خصيصاً لي . فاعتذرت بشتى المعاذير ، وانتحلت جميع العلل حتى استطعت أن أتخلص منهم .

فالمرأة ذات الوجه الوديع ، والعينين الصافيتين ستنتظرني في الملهى لتلقي الدرس على زوجها ، ولا يخفى على أحد ولعي بالوجوه الوديعة والعيون الصافية ، ولست ممن يتقاعس عن إلقاء درس كهذا الدرس ! فمن يدري لعل الليلة تسفر عن صيد ثمين ؟ فما زال في جعبتي كثير من السهام .

فلما أمسى المساء كنت أول من دخل الملهى ، وجلست إلى مائدتي المعهودة ، وما هي إلا لحظات حتى أقبلت المرأة وزوجها وهي تزهو بثوب رائع ، ولكنها لم تحيني بإيماءة لطيفة من رأسها ، حتى ولم تلق عليَّ نظرة عابرة من عينيها الصافيتين ! فما بالها اليوم تنكرني هذا النكر ، وتتجاهلني هذا الجهل ، وتعرض عني كل هذا الإعراض كأنه لم يكن بيني وبينها أشياء !! بل جلست إلى مائدتها وولتني ظهرها . وجلس الزوج قبالتي تماماً . ثم حدجني بنظرة فيها الكثير من التحدي والاستفزاز مما جعلني أؤمن كزوجه ، إنه لا يستهان به أبداً .

ثم أخذت أتحاشى النظر إليه . ولما دعت الموسيقى إلى الرقص كان أول من لباها هذان الزوجان ، واندفعا يرقصان بحماسة وأخذت أتابعهما بنظراتي . وكأني بالزوجة كانت تلفت نظر زوجها إلي كما كنت ألفت نظرها البارحة فتقول له :

انظر إليه كيف يتابعنا بنظراته فمرة يشرئب عنقه ، ومرة يلتوي يمنة ويسرة . فينظران إلي ويضحكان مني .

ولما مرا من أمام مائدتي أثناءالرقص ، مال عليّ الزوج وقال :

حذار بعد اليوم أن تفكر في **إلقاء الدروس** ...

فأجبته على الفور :

وحذار أنت بعد اليوم أن **تراقص طرايا العود ، ممشوقات الخصور** ...

وضحكنا وارتسم الرضى على الوجه الوديع وحسبي ذلك !!

أمجرم هو

أمجـــرم هُـــو ؟

ها أنا ذا أيها الصـديق ألجأ إليك شـأني دائماً كلما وقعت في مأزق حرج .

أما مأزقي في هذه المرة فحيرة شديدة تملكتني ، واضطراب استولى عليّ حتى أصبحت لا أستقر على حال من القلق .

ولا أحب أن أطيل عليك فلنبدأ القصة من أولها .

طلب مني أحد معارفي أن أدرس ابنته الأدب العربي . فكنت أختلف إليهـا مرتين في الأسبوع . كانت صبية فاتنة ، قوية الشخصية ، لم تتجاوز العشرين ربيعاً . أبدت إعجابها بي منذ تعارفنا أول مرة بصراحة تامة ولباقة نادرة ، جعلتني أنا الذي شارفت على الخمسين أتيه معتزاً . ثم أخذ يلذ لي أن أثبت لنفسي أنني ما زلت شاباً ذا حظوة عند النساء يحسدني عليها الكثيرون ، وأن هذه الصغيرة الفاتنة أصبحت تنتظر مقدمي إليها لهيفة مشوقة كغيرها من النساء اللواتي عرفتهن في عز شبابي . وإذا خامرني أي شك أخذت أعتقده كنت أطمئن نفسي قائلاً :

وأي غرابة في ذلك ؟ نحن الأدباء لنا ميزة خاصة . ألم تبادل الأديب الكبير « غوته » العشق فتاة في الثامنة عشرة وقد تجاوز الثمانين ؟

ألم تهم بفكتور هوغو وهو شيخ نساء في ريعان الصبا ؟.

ألم يتيم عمر بن أبي ربيعة نساء عصره طوال حياته ؟.

ولكنني أدركت أخيراً أنها هي أيضاً كان يروقها أن ترى رجلاً مجرباً

مثلي ، وقد قرأت له الكثير من القصص والروايات ، وسمعت الكثير عن مغامراته في ميدان الغزل والعاطفة يفتن بها . ولعل ما من شيء كان يطمئنها على سحر جمالها كأن تراني مأخوذاً بها مرتبكاً أمام فتنتها .

كان كلانا إذن حريصاً على أن يفتن الآخر ليرضي غروره فقط . ومع الأيام نشب بيننا نضال نفساني شديد مضينا فيه كل في طريقه ، ولكن أتدري يا صاحبي كيف انتهينا .

يا لها من ساعات ممتعة تلك التي قضيتها أدرِّسها الأدب !... لقد عادت بي تلك السويعات سنين عديدة إلى الوراء . أليست معجزة أن يعود الشباب ؟ ثم تتحول نفسك في فترة وجيزة من بيداء ظمأى إلى ربيع ندي ، ولا تلبث حتى تصبح تنشيك نغمة حلوة ، ويخفق قلبك لضحكة عابثة ، وتسري فيك رعشة لمسة طارئة .

كنت أصرف الساعات الطوال من وقتي الثمين وأنا انتخب مقطوعات من الشعر الغزلي الرقيق أكررها في خلوتي مراراً عديدة حتى إذا أجدتها وألقيتها أمامها لمست تأثرها بها . ولربما بنيت على هذا التأثر المصحوب بنظرات عميقة أشياء وأشياء .

هكذا كان غروري يفسر لي الأمور كما تشتهيها نفسي !

كأني أرى ابتسامة عريضة تعلو شفتيك وأنت تتمثلني أتمرن على مقطوعة من الغزل لألقيها أمام فاتنتي كما يفعل ابن العشرين تماماً .

لابأس يا صاحبي أن تضحك مني فطالما ضحكت أنا من نفسي !. ولكن حذار أن تغرق في الضحك ، فقد آن لك أن تشفق على صديقك الذي دخل المعركة على أن يكون فاتناً منتصراً فخرج منها مفتوناً مدحوراً . لقد تغلبت هي ، والشباب دائماً غلاّب .

طلبت مني ذات أصيل بعد أن فرغنا من الدرس أن أمضي السهرة عندها ، ثم قالت وقد شبكت يديها على صدرها وومضت عيناها ببريق أخّاذ :

أريد الليلة أن أعهد إليك بمهمة عسيرة لأن ما من أحد غيرك يستطيع أن يساعدني بها . وتمالكت نفسي لأقول :

أنا طوع أمرك ، ورهين إشارتك . أردت أن أحتفظ بوقار الأستاذ ولو قليلاً . ثم استأنفت حديثها بعد إطراقة قصيرة قائلة :

لقد تقدم لخطبتي رجلان . أعجب والدي بأحدهما ، وأعجبت أنا بالآخر ، وقد دعوت الليلة الذي اخترته أنا لتمضية السهرة عندنا ، وكل ما أريده منك هو أن تقنع والديّ بوجهة نظري .

فعضضت أنا على النواجذ ، ثم قلت متكلفاً اللامبالاة :

سأقنعهما ، وليس أسهل عليّ من إقناعهما ، هذا فيما إذا أعجبت أنا أيضاً بالشاب الذي اخترته لنفسك ، لأن أمرك يهمني كما يهمني أمر ابنتي تماماً .

فأجابت بلهجة تنم عن ثقة واعتزاز :

سيعجبك وما من شك في ذلك أبداً ، إنه شاب مثالي .

قلت متهكماً :

إنه ليشوقني أن أرى هذا المثالي الذي فاز بإعجابك .

لاأدري يا صاحبي لماذا شعرت بالمقت والكره لهذا الشاب منذ وقعت عيناي عليه . لقد شعرت والله كأنه يجثم فوق صدري . وأصارحك أنني لم أترك له ليلتئذ فرصة واحدة لينطق بكلمة . فقد استوليت أنا على الحديث ،

وجلس هو متململاً وكأنه قد ضاق بي ذرعاً . كان يمد يده من حين لآخر فيسوي شعره الكثيف المتموج ، وكنت أنا أيضاً بحركة لا شعورية أمد يدي إلى رأسي فتصطدم بصلعة ملساء تعيدني فوراً إلى واقعي المرّ . وكأني كنت أطمع أن أعوض عن نقصي هذا فتسعفني حالاً ذاكرتي الفياضة بنكتة حلوة أو حديث طريف . ولما ودعتها ووالديها لمحت في عينيها نظرة تستوضحني رأيي ، فتجاهلتها بارتباك . ثم انصرفت وأنا أشعر بانقباض وضيق شديدين كهذا الشعور الذي يعترينا بعد خيبة أمل وانكسار ذليل . ولما أويت إلى سريري تعذر علي النوم وازداد ضيقي وانقباضي فأخذت أغالط نفسي عما يدور في أعماقها وأعزو ما أصابني إلى الإسراف في التدخين وشرب القهوة .

ولما عاودنا درسنا كان أول ما بادرتني به أن سألتني رأيي بفتاها . فكان جوابي قهقهة عالية . ثم قلت بسخرية :

لا أدري والله ماالذي أعجبك به . إنه ثقيل ، متكلف ، مغرور ، متعجرف بليد . وقد تناهى إليّ ايضاً أن سمعته ليست ... ولكن لا ... دعينا من هذا يا صغيرتي فأنا لا أحب اغتياب الناس !... ألم تلاحظي أنه لم يبدأ حديثاً ، ولم يبد رأياً ، ولم يؤيد فكرة ، بل جلس كتمثال مغتراً بجماله مع العلم أنه كان يبدي وقتئذ خير ما عنده ليفوز بإعجابك . ولكن ما العمل ؟ المرأة هي المرأة مهما نالت من الثقافة والعلم ، لا يعجبها في الرجل إلا قوام فارع ، وشباب دافق . ومنكبان عريضان . إني والله لأضن عليه بهرة فكيف بصبية كاملة مثلك ؟

كانت تنظر إلي مشدوهة وقد بانت الخيبة على وجهها ثم استسلمت إلى صمت عميق يائس .

اعترف إليك الآن خجلاً أننا تألبنا عليها أنا وأمها وأبوها حتى زوجناها

من ذلك الكهل الثري الذي اختاره أبوها . وسافرت معه إلى شهر العسل . وأنا راض مطمئن النفس ستعود عما قريب ، وسنستأنف الدرس كما وعدتني .

إن للضمير يا صاحبي غفوات !!

لم يمض على هذا الحادث سوى أسبوع واحد حتى دخل عليَّ ابني ذات مساء وعلى فمه ابتسامة رضى ثم قال لي : تقدم صديقي فلان لخطبة أختي .

وما كدت أسمع الاسم حتى انتفضت كالملسوع وقلت :

لا أوافق أبداً لا يعجبني هذا الطراز من الشباب . إنه فارغ متعجرف ، ثقيل بليد . فقاطعني ابني قائلاً :

من أين تعرفه ؟ إنه صديقي وهو من خيرة الشباب وبريء من كل ما وصفته به . لا أعتقد أبداً أن أختي ستحظى بزوج خير منه ، حرام علينا أن نضيعه عليها ، أختي راضية عن هذه الخطبة بل فرحة مستبشرة .

فسكت أنا على مضض . وأخذت أفكر بالأمر وأنا أكرر في سري فرحة مستبشرة .

ووقعت في حيرة شديدة لقد أصبحت أنظر إلى الشاب بعين غير التي رأيته بها يوم السهرة . إنه شاب مثالي حقاً !...

أتصل بي الأنانية إلى درجة أن أحرم منه ابنتي من أجل أن لا أتراجع وألام أمام تلك التي يهمني أمرها ؟ أنا الذي وعدت امرأتي وهي على فراش الموت أن أكون لابنتنا الغالية أماً وأباً .

لا ... إن هذا لكثير على أب مثلي .

ووافقت على الزواج وجرت مراسيمه بسرعة عجيبة . وسافرا إلى شهر

العسل وكانت فتاتي وزوجها لم يعودا بعد ، وشاء عبث الأقدار أن يجتمعوا جميعاً في فندق واحد .

لقد وردتني منها رسالة فهمت من فحواها أنها كرهت الأدب والأدباء وتقول في نهايتها :

الآن أدركت جيداً لماذا حلت بيني وبين الزواج من فلان أنا التي يهمك أمرها كما يهمك أمر ابنتك تماماً .

لقد حلَّلت يا صاحبي في قصصي أعقد الشخصيات ، ولكنني وقفت حائراً عاجزاً أمام نفسي . تراودني الآن فكرة الكتابة إليها عساها تعود ويعود معها الشباب ولكنني أمزق في النهار ما كتبته في الليل بعد أرق هدام لأنني لم أجد ما يبرر موقفي الخاطئ منها . كيف لي أن أرضى بالواقع وفقد الشباب مرة ثانية أشد لوعة ، وأعمق إيلاماً من فقده بالمرة الأولى . فهل تستطيع أنت وقد عهدتك واسع الصدر لأمثالي أن ترشدني إلى طريقة تخلصني من الندم الذي اعتراني ومن هذه الحيرة التي تملكتني وهذا الاضطراب الذي استولى علي حتى أصبحت لا أستقر على حال من القلق . يخيل إلي أحياناً أنني مجرم فهل تراني كذلك ؟

المحتوى



□ خير ما في هذه المجموعة القصصية أنها طراز خاص، وشخصية مستقلة فيها تصوير للحياة الشرقية، وتعبير عن العقلية الشرقية. فهي شرقية الجو، شرقية السمات والنزعات، قد يفرغ القراء من هذه المجموعة وقد اختلفوا أذواقاً وأهواءً. تتفاوت مراتب إعجابهم بهذه القصة أو تلك، ولكنهم سيتفقون جميعاً على أن كاتبة قصصية قد بزغ نجمها في أدبنا العربي الحديث وأن هذا النجم قد أخذ يبعث في عرض الأفق ضوءه الوادع اللماح.

محمود تيمور □

